وصايا النبي ﷺ في المائة يوم الأخيرة من حياته

الرئاسة العامة لشئون
المسجد الحرام والمسجد النبوي

تأليف
عبدالعزيز بن عبدالله الحاج
صالح بن عبدالرحمن الحصين

طبعة تجريبية معروضة لأهل العلم طلباً للنصح
واقتراح التعديلات الملائمة من زيادة أو نقص أو تغيير

الطبعة الأولى عام ١٤٣١هـ



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد،،،

فقد جمعنا بعد الاستعانة بالله ما نرى أنها وصايا المصطفى ﷺ في آخر حياته، أي في المدة المحصورة بالمائة يوم الأخيرة، بدءاً من خروجه ﷺ من المدينة في حجة الوداع وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة عشر من الهجرة إلى وفاته ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

اتبعنا في تعيين هذه الوصايا المعايير التالية:

١ - أن تكون بلفظ الوصية مثل قوله ﷺ : «استوصوا بالنساء خيرا »، أو يظهر لنا اهتمام النبي ﷺ بالأمر من خلال السياق كالتأكيد بتكرار الأمر كقوله ﷺ : «الصلاة الصلاة».

٢ - أن يقع التصريح باليوم الذي جرت فيه الوصية، أو تحف بالوصية قرائن تدل على أنه ﷺ أوصى بها في آخر حياته.

٣ - أن يلاحظ وقوع إخلال من بعض الأمة بمضمون الوصية، ما نحسب معه أنه ﷺ خشي أو توقع إخلال الأمة بذلك فأوجب اهتمامه ﷺ به في آخر حياته، إذ عادةً ما يهتم الموصي بالأمور المهمة جداً، والتي يخشى أو يتوقع فواتها.

وتنطبق هذه المعايير كما نرى على الوصايا الآتية :

١) الوصية بالصلاة .

٢) الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة .

٣) الوصية بآل البيت .

٤) الوصية بالأنصار.

٥) الوصية بطاعة ولاة الأمر .

٦) الوصية بحرمة المسلم.

٧) الوصية بالنساء.

٨) الوصية بالخدم .

٩) الوصية بالأمانة .

١٠) الوصية بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

١١) التحذير من الشرك .

١٢) التحذير من البدع.

١٣) التحذير من فتنة التهارج والاقتتال.

١٤) التحذير من الربا .

١٥) الوصية بالتبليغ .

وقد ذكرنا كل وصية على حدة، مبتدئين بإيراد النصوص التي استندنا إليها في اعتبارها، ثم أردفنا ذلك بالتعليق عليها، مستعينين بالأدلة من الكتاب والسنة، ومستأنسين ببعض كلام جهابذة الإسلام من المفسرين وشرَّاح الحديث وقد حرصنا على عدم الإطالة ما وسعنا ذلك، والمقصود أن يكون الكتاب في متناول الجميع سهل العبارة بيِّن المنزِع .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما إليه قصدنا من النصح للملة والإفادة للأمة فهو الهادي لأقوم السبل والمستعان في إنجاح الإرب .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلفان

الوصية الأولى

الوصية بالصلاة :

١- أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث أم سلمة، والحاكم وابن حبان من حديث أنس قال: كان آخر وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر بها في صدره، ، وما يفيض بها لسانه : «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» .

٢ - وأخرج أبو داود وأحمد وابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

٣- وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا، ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا، ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا، فقام رجل طويل كأنه من رجال شنوءة فقال : يا نبي الله فماذا نفعل ؟ وفي رواية أحمد يا رسول الله ماذا تعهد إلينا ؟ فقال ﷺ : «أعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم عز وجل» .

مكانة الصلاة :

الصلاة رأس القربات، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم أركان الإسلام العملية على الإطلاق، وهي أظهر شعار عملي لدين الإسلام، قال شمس الأئمة السرخسى الحنفى :(لأن الصلاة من أقوى الأركان بعد الإيمان بالله تعالى، قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام : «الصلاة عماد الدين» فمن أراد نصب خيمة بدأ بنصب العماد، والصلاة من أعلى معالم الدين، ما خلت عنها شريعة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين... إلى أن قال: وقد سمعت شيخنا الإمام الأستاذ شمس الأئمة الحلواني رحمه الله يقول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (سورة طه، آية١٤) أي : (لأني ذكرتها في كل كتاب منزَّل على لسان كل نبي مرسل). وفي قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ (سورة المدثر، آية ٤٢ -٤٣) ما يدل على وكادتها، فحين وقعت بها البداية دل على أنها ثانية الإيمان فالمصلي في اللغة هو التالي

للسابق في الخيل) .. أ.هـ

ومما يدل على عظمة منزلتها في الإسلام، وعظم شأنها في دين سيد الأنام، أنها لا تسقط عن المسلم بحال، إلا مع سقوط التكليف عنه بذهاب العقل - ما عدا الحائض والنفساء - فهي واجبة على المريض بحسب حاله فقد قال المصطفى ﷺ للمريض: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» (أخرجه البخاري)، كما تجب على الآمن والخائف قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ (سورة البقرة، آية٢٣٩) أي: صلوا على الحال التي تتيسر لكم.

فلا يسقط وجوب أدائها في وقتها حتى عند التحام الصفوف أو الاقتحام في المعركة الجهادية فيصليها وإن كان الحال يضطره إلى المشي أو السعي أو مقارعة العدو بالسلاح.

وفي الصلاة أنس المشتاقين وراحة عباد الله المخلصين وعون أولياء الله المتقين قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (سورة البقرة، آية٤٥).

لكن وللأسف الشديد وقع في أمة الإسلام التقصير فيها وقوعاً بيناً، ظاهراً لكل صاحب قلب حي، فالناظر في حال المسلمين اليوم يتفطر قلبه حزناً على ما آل إليه أمرهم تجاه هذه العبادة العظيمة فهم في كثير من الأحيان بين تارك لها بالكلية، ومقصِّر في بعض شروطها ومواقيتها، أما الإخلال بخشوعها فأمر ظاهر للعيان.

ولو أن أهل الإسلام قدروا الصلاة حق قدرها، وقاموا بها خير قيام، لكانت الصلاة سبباً في صلاح أحوالهم. وتقويم سلوكهم. فإنها كما قال أصدق القائلين: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (سورة العنكبوت، آية ٤٥). وعند النظر في واقع المسلمين ترى كثيراً ممن يصلي منهم لا يوجد للصلاة في سلوكه أثر، وأساس ذلك ومكمنه هو أن كثيراً من المصلين جعل الصلاة شكلاً دون حقيقة، وطقوساً دون روح، فلم تثمر الصلاة فيهم زكاة وصلاحاً فالله المستعان!

وأهمية الصلاة مع ما يشاهد من التقصير البيِّن فيها هو - والله أعلم - ما أقتضى وصية النبي ﷺ بها في آخر حياته، فأوجب ذلك التأكيد على الوصية بها، حتى كانت آخر ما تكلم به وهو يغرغر فبأبي وأمي ما أنصحه لأمته فجزاه الله عنا خير الجزاء.

حكم الصلاة :

قال ابن رشد المالكي : «وجوب الصلاة بيّن من الكتاب والسنة والإجماع وشهرة ذلك تغني عن تكلّف القول فيه».

مواقيت الصلاة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ (سورة النساء، آية١٠٣).

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية : أي : محدوداً معيناً يقال : وقته فهو موقوت، ووقته فهو مؤقت . والمعنى : إن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة، لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت، إلا لعذر شرعي من نوم أو سهو أو نحوهما . أ. هـ.

ومما يدل على تعيُّن الوقت ووجوب فعل الصلاة فيه دون تأخير ولا تقديم، عدم سقوط التوقيت حتى في حال الخوف، فقد أوجب الله على المسلمين فعل الصلاة في أوقاتها حتى في حال الخوف ومواجهة العدو في الحرب قال تعالى:﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ ﴾ (سورة البقرة، آية٢٣٨-٢٣٩) .

وقد أمر رسول الله ﷺ بأداء الصلاة في أوقاتها التي شرع الله فقال كما في حديث أبي ذر: «صل الصلاة لوقتها » (أخرجه مسلم).

فيجب على المسلم أن يأتي بالصلوات الخمس في أوقاتها المعينة لها، فتأخيرها عن أوقاتها من غير عذر، نوم أو نسيان من أكبر الكبائر، بل عند بعض أهل العلم حكمه حكم ترك الصلاة، وحكم فاعله حكم تارك الصلاة .

فحذار حذار أخي المسلم من تأخير الصلاة عن وقتها وأنت تقرأ قول الله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ (سورة الماعون، آية٤-٥) قال القرطبي : عن ابن عباس رضي الله عنه: «الذين يؤخرونها عن أوقاتها».

آداب الصلاة :

١- الإخلاص لله ، فالمراءاة بالصلاة من صفات المنافقين قال تعالى عنهم:﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (سورة النساء، آية١٤٢) .

٢- النشاط لها والفرح بها ، فإن الكسل والتثاقل عنها من أوصاف المنافقين، قال تعالى عنهم:

﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ (سورة النساء، آية١٤٢) .

٣- الاستعداد والتهيؤ لها بأمور منها :

أ- صلاة النوافل القبلية حيث شرعت .

ب- لبس الثياب الحسنة .

جـ- البعد عن أسباب تشويش الذهن، كالصلاة بحضرة طعام أو في حال شدة الحر أو شدة البرد.

٤- صلاتها في جماعة للرجال، وصلاة الجماعة للرجل الآمن الصحيح واجبة، ومن أدلة وجوبها: قصة الأعمى الذي استأذن النبي ﷺ لبعد بيته وعدم وجود قائد يقوده، فلما سأله النبي ﷺ هل تسمع النداء بالصلاة ؟ فقال : نعم، قال : «فأجب» (أخرجه مسلم) .

وحديث همّه ﷺ بإحراق بيوت المتخلفين عن الجماعة ولم يمنعه إلا الحفاظ على النساء والذرية وهو مخرج في الصحيح .

ومما يدل دلالة واضحة على عظم شأن الجماعة وأهميتها عدم سقوطها حتى في حال الخوف، فقد شرعت الجماعة حتى في حال الخوف والقتال، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (سورة النساء، آية١٠٢).

وهذا الأمر مما استقر في أذهان أصحاب محمد ﷺ حتى كانوا يعدون المتخلف عن الجماعة منافقاً، وكان الواحد منهم يتحامل على نفسه مع علته ليشهد الجماعة، واستمع إلى قول ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول :«من سرّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيه محسنن الهدى وإنّهنّ، من سنن الهدى ﷺ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان

الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف» (أخرجه مسلم).

٥- تحري السنة في أفعال وأقوال الصلاة، حتى يتم للمسلم امتثال أمر المصطفى ﷺ في قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» (أخرجه البخاري).

٦- الخشوع فيها وإحضار القلب، وهذا أعظم آدابها، بل هو لبها وروحها، وسرها وإكسيرها الذي به تحقق الصلاة ثمارها التي لأجلها شرعت، من تحصيل التقوى وسائر الأخلاق الفاضلة، والتخلي عن مرذول الأخلاق وكل فاحشة ومنكر، بل إن ما يرجى بالصلاة من الثواب إنما يحصل للعبد بقدر خشوعه وحضور قلبه، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل لينصرف من صلاته وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها» (أخرجه أبو داود والطبراني والطحاوي).

وورد أن الخشوع أول ما يفقد من الدين، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعاً» قال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً» (أخرجه الإمام أحمد).

والخشوع الحقيقي يتكون من جزأين:

الجزء الأول ظاهر: وهو سكون الأعضاء في الصلاة، والطمأنينة فيها وعدم الالتفات بالبصر.

وجزء باطن: وهو حضور القلب في الصلاة ليعي المصلي كل قول أو فعل في الصلاة فينتفع به في دنياه وأخراه.

وثمّ عوامل وأسباب تساعد على الخشوع وتعين عليه، وجماع ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت، آية٦٩).

ومن تلك العوامل ما يلي:

أ- إحسان الإعداد للصلاة والتهيؤ لها بأتم الوجوه وأكملها من إتمام الطهارة ولبس الثياب النظيفة واختيار المكان المناسب.

ب- استشعار الوقوف بين يدي الله سبحانه ومناجاته، فالمصلي واقف بين يدي مولاه سبحانه وتعالى يناجيه.

جـ - المجاهدة في إحضار القلب .

د- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

هـ- تدبر ما يقرأ من القرآن وما يقول من الذكر .

و- التفكر في حركات الصلاة وكيف أنها حركات تذلل وتواضع لله سبحانه وتعالى .

ز- ترتيل القراءة وتحسين الصوت بها .

حـ - التنوع في القراءة والأذكار والأدعية .

ط- المحافظة على السنن القبلية والبعدية .

ي- النظر إلى موضع السجود .

الوصية الثانية

الاعتصام بالكتاب والسنة :

١-أخرج مسلم في صحيحه من رواية جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر بن عبد الله في صفة حجه ﷺ في حديثه الطويل بعد أن ذكر خطبته ﷺ بنمرة قال فيها ﷺ: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ».

٢- وأخرج البيهقي والحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال : «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه».

٣- وأخرج البيهقي والحاكم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض » .

٤- وفي موطأ مَالك أنه بَلَغَهُ أن رَسُولَ الله ﷺ قال:«تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ».

٥-وأخرج مسلم أيضاً عن زَيْدِ بن أَرْقَمَ قال :قام رسول اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بين مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عليه وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قال:«أَمَّا بَعْدُ ألا أَيُّهَا الناس فَإِنَّمَا أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رسول رَبِّي فَأُجِيبَ وأنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فيه الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا به فَحَثَّ على كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فيه ثُمَّ قال وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتِي».

تمهيد :

هذه الوصية بنوعي الوحي : (القرآن) (وسنة النبي ﷺ) مطابقة لوصايا القرآن الكريم في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ (سورة الأنفال، آية٢٠) ، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (سورة النساء، آية٥٩) ، وقوله

سبحانه: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة، آية١٢٩).

وقوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة البقرة، آية١٢٩).

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة آل عمران، آية١٦٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب، آية٣٤).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم، آية٣-٤).

فالقرآن الكريم إلى جانبه سنة الرسول الكريم ﷺ (أقواله وأفعاله وتقريراته)، هما مصدر دين الإسلام عقيدة وشريعة لن يضل المسلم ما دام متمسكاً بهما.

وكما قال المناوي في فيض القدير عند شرحه حديث أبي هريرة (رقم ٣٢٨٢) «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض» قال رحمه الله: «إنهما الأصلان اللذان لا عدول عنهما ولا هدى إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن تمسك بهما واعتصم بحبلهما، وهما الفرقان الواضح، والبرهان اللائح بين المحق إذا اقتضاهما والمبطل إذا خلّاهما، فوجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة متيقن معلوم من الدين بالضرورة».

إن الكتاب، والسنة فيهما الهدى والنور، محفوظان بحفظ الله ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر، آية٩). فيهما حل كل المشاكل ، وفيهما المواجهة الحكيمة لكل نازلة مهما اختلف الزمان وتغير المكان، وسعا كل جوانب الحياة : سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وفردية .

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه للذي قال له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة؟ قال سلمان: «أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو عظم» (أخرجه مسلم) .

مكانة القرآن :

لم يبلغ أحد في وصف القرآن الكريم ما وصفه الله في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (سورة الرعد، آية٣١)، وقوله سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الإسراء، آية٨٢)، وقوله سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الحشر، آية٢١). وقوله سبحانه :

﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (سورة الزمر، آية٢٣).

و بعد كلام الخالق في وصف كتابه، فربما كان من أبلغ كلام المخلوقين في وصف القرآن ما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو الذي من عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

مكانة السنة :

أما السنة وهي المصدر الثاني لشرعة الإسلام، فهي مبيِّنة للقرآن شارحة لما قد يخفى منه، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل، آية٤٤).

وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...الآية ﴾ (سورة النساء، آية٥٩).

قال ابن عطية في تفسيره : (هو سؤاله في حياته، والنظر في سنته بعد وفاته عليه السلام)، وقال ابن العربي المالكي: قال علماؤنا : (ردّوه إلى كتاب الله، فإن لم تجدوا فإلى سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (سورة الحشر، آية٧) .

وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة النور، آية٦٣).

وقد فقه هذا المعنى صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا مُعاذ بن جبلٍ لمَّا أرادَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْعَثه إلى

اليَمَنِ قال: «كَيْفَ تَقْضِي إذا عَرَضَ لك قَضَاءٌ»؟قال :أَقْضِي بكِتَابِ اللَّه، قالَ:« فَإِنْ لم تَجِدْ في كِتَابِ اللَّه » قال: فَبِسُنَّةِ رسول اللَّه ﷺ، قالَ:«فَإِنْ لم تَجِدْ في سُنَّةِ رسول اللَّه ولا في كِتَابِ اللَّه » قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي ولا آلُو، فَضَرَبَ رسول اللَّه صَدْرَهُ وقال :«الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي وَفَّقَ رَسُولَ رسول اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّه» (أخرجه أبو داود).

حفظ القرآن والسنة :

كان من فضل الله على هذه الأمة ورحمته بها أن تكفل بحفظ كتابه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر، آية٩) .

فكان من مصداق ذلك ما هدى الله إليه خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه من جمع القرآن في مصحف واحد من الوثائق المكتوبة التي ساندها ما لا يحصى من صدور الحفاظ، ثم هدى الله الأمة بعد أقل من ثمانية عشر عاماً مضت على وفاة رسول الله ﷺ لكتابته على حرف واحد بأمر أمير المؤمنين ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فحمى الله كتابه أن يتعرض لما تعرضت له كتب الأديان الأخرى من ضياع وتغيير، فظل من بين كتب الأديان الأخرى كلها الوحيد الثابت بالسند إلى النبي ﷺ ، فلم ينله أي تغيير طوال القرون.

ثم وفق الله هذه الأمة لتوثيق سنة نبيه ﷺ بإتباع علمائها في وقت مبكر منهجاً مبتكراً لم يسبقوا إليه ولم يلحقوا فيه، فبفضل هذا المنهج صار من المتيسر التمييز بين صحيح الحديث و ضعيفه، ومرفوعه وموقوفه، متصله ومنقطعه، وناسخه ومنسوخه.

والأمر في هذا أعظم من أن يوصف، ولا يدرك دقائقه إلا من كان من ذوي الإختصاص الذين أمضوا قدراً كافياً من أوقاتهم في النظر في أعمال المحدثين والإطلاع على سيرهم ومؤلفاتهم.

ولقد تميزت هذه الأمة بصحة وحفظ وتوثيق مصادر دينها بما لم يتفق لدين آخر من الأديان الشائعة في هذا العصر، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يوجد لدى أتباعه اليقين الكامل عن شخصية النبي الذي جاء به، ودقائق سيرته وحياته العامة والخاصة، وكذا اليقين بأن الكتاب الذي جاء به لم يتغير أو يبدل أو ينقص منه أو يزاد فيه عن الأصل الذي جاء به.

أما الأديان الأخرى فكما يعلم كل مطلع على تاريخ الأديان، لا يوجد لدى متدينيها يقين بأن مؤسسيها قد وجدوا أصلاً في الحياة، ولا يوجد لديهم يقين باتصال سند الكتب المقدسة إلى الأنبياء المنسوبة إليهم ، بل الثابت تعرضها للتحريف والتغيير، ووجود الاختلاف والتناقض وإتيان الباطل لها من بين يديها ومن خلفها.

الإخلال بالاعتصام بالكتاب والسنة :

كما توقع الرسول الكريم ﷺ فقد وجد في هذه الأمة على مر الأزمنة من التقصير في الإنتفاع بكتاب الله وسنة نبيه وطلب الهدى منهما ما هو أشهر من أن يطال فيه الكلام، وفي خصوص السنة فقد وجد في هذه الأمة مَنْ نقص علمه أو غلبه هواه فحاول أن يفرق بين نوعي الوحي في وجوب إتباعهما والتمسك بهما، بدعوى الاستغناء بالقرآن عن السنة في العلم والعمل، ولقد نبأ ﷺ بذلك، فعن المقدام بن معد يكرب أن النبي ﷺ قال : «يوشك الرجل متكئاً على أريكته يُحدَثُ بالحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإن ما حرَّم رسول الله مثل ما حرَّم الله » (أخرجه أبوداود وابن ماجه والترمذي وقال : حسن صحيح) .

واقرأ أخي المسلم في الرد على أمثال هؤلاء قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ (سورة النساء، آية٨٠)، وقوله : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ (سورة آل عمران، آية٣١)، وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ (سورة الأحزاب، آية٣٦)، وقوله : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ (سورة النحل، آية٤٤) ، وقال تعالى :

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ (سورة النساء، آية٦٥).

والحق أن كل انحراف فكري أو عملي وقع في هذه الأمة كان بسبب الإخلال بالتمسك بهذين الثقلين من نوعي الوحي :القرآن والسنة، والزيغ عنهما، وتقديم غيرهما من مصادر المعرفة والفكر عليهما، والغفلة عن أن الله يعلم والخلق لا يعلمون، وأن الوحي لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، فالحمد لله رب العالمين على إكمال دينه وإتمام نعمته ورضاه لنا الإسلام ديناً.

الوصية الثالثة

الوصية بآل البيت :

١ - أخرج مسلم في صحيحه عن زَيْدِ بن أَرْقَمَ قال: قام رسول اللَّه ﷺ يَوْمًا فينَا خَطيبًا بمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بين مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عليه وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قال: « أَمَّا بَعْدُ أَلا أَيُّهَا الناس فَإِنَّمَا أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رسول رَبِّي فَأُجِيبَ وأنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فيه الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا به فَحَثَّ على كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فيه، ثُمَّ قال: وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ في أَهْلِ بَيْتِي».

٢ - أخرج البخاري وغيره عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته»، وأخرج البخاري وغيره عنه أنه قال: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي من قرابتي» .

٣ - وأخرج مسلم عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شعر أسود فجاء الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

من هم آل بيت النبي ﷺ ؟

قال الله سبحانه وتعالى في خطاب زوجات النبي ﷺ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب، آية٣٣-٣٤)، الآية الكريمة وإن كانت -كما هو ظاهر من السياق -نزلت في أزواج النبي ﷺ فهن المقصودات بالنص، إلا أن أهل البيت لا تختص بهن بل تشمل معهن قرابة رسول الله ﷺ ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها (الذي مر

آنفاً)، وكما في حديث زيد بن أرقم عندما سئل زيد بن أرقم من هم أهل بيته؟قال: «أَهْلُ بَيْتِهِ من حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ. قال السائل: وَمَنْ هُمْ؟قال: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَبَّاسٍ» (أخرجه مسلم).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ: «كِخْ، كِخْ» ليطرحها، ثم قال: «أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة؟!».

وفي رواية لمسلم: «أنا لا تحل لنا الصدقة».

وجاء في الصحيحَين أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأصحابه: «قولوا: اللّهمّ صلّ على محمد وأزواجه وذريّته كما صليتَ على آل إبراهيم، وبارك على محمّد وأزواجه وذرّيّته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»، وهذا يفسِّر اللفظ الآخرَ للحديث: «اللّهمّ صَلّ على محمّد وعلى آل محمّد، وبارك على محمّد وعلى آل محمد»، فالآل هنا همُ الأزواج والذرّيّة كما في الحديثِ الأول، والنص يقتضي تفسير (الآل) في آل محمد بمعنى (الآل) في آل إبراهيم قال تعالى:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (سورة هود، آية ٧٢ - ٧٣) فالسياق يدل على أن أهل البيت يشمل إبراهيم وزوجته وإسحاق ويعقوب، ويقتضي كل ما سبق أن آل بيت النبي ﷺ بالمعنى الواسع هم كل من تحرم عليه الزكاة بسبب قرابته من الرسول ﷺ.

بعض ما ورد في فضائلهم:

قالَ ﷺ في فاطمة: «فاطمَةُ سيِّدة نساء أهلِ الجنّة» (أخرجه البخاري)، وفي الصحيحَين أنّهَ ﷺ قال: «فاطِمة بَضعة مِني، فمن أغضبها أغضَبَني»، وفي روايةٍ في الصحيحين أيضًا: «فاطِمَة بَضعة مني، يريبني ما رابها، ويُؤذيني ما آذاها».

وروى البخاريّ رحمه الله أنَّ النبيّ ﷺ قال لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنتَ مني وأنا منك»، كما قال ﷺ في حق الحسنِ بن عليّ رضي الله عنه: «إنَّ ابني هذا سيِّد، ولعلّ الله أن يصلِحَ به بينَ فِئَتين من المسلِمين» (أخرجه البخاري)، وقال في الحسين بن علي: «اللهم

إني أحبّه، فأحبَّه وأحبَّ مَن يحبُّه» (متَّفق عليه).

وقال الله تعالى في أزواجه ﷺ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ (سورة الأحزاب، آية٦).

وفي اختصاص الله للمباهلة بهم في آية المباهلة أكبر دليل على فضلهم، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ ﴾ (سورة آل عمران، آية٦١).

حقوق آل البيت:

إن محبة آل بيت النبوة وإجلالهم فرض شرعيّ قال النبي ﷺ «وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي» ، ولأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ .

وهذه المحبة والإجلال لأهل البيت تقتضي:

١ – معاملتهم بما يليق بهم.

٣ – الدعاء لهم في الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

٤ – تولي الصالحين منهم ومجالستهم والأخذ عنهم، والبرّ بهم وتطييب خواطرهم، والرغبة في القرب منهم، ومصاهرتهم تزوجًا أو تزويجًا.

٥ – مناصرتهم والبذل لهم، والذبُّ عنهم، وذكر مناقبهم ومحاسنهم.

٦ – مناصحة غير الصالح منهم والشفقة عليه والرحمة به، ودعوته إلى نهج آل البيت الطيبين الطاهرين.

قال الآجري رحمه الله: «واجب على كل المسلمين محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، وإكرامهم واحتمالهم، وحسن مداراتهم والصبر عليهم، والدعاء لهم».

٧ – استحقاقهم من الخمس والفيء، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (سورة الأنفال، آية٤١).

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ (سورة الحشر، آية٧).

وما زال المسلمون يضمنون عقائدهم النص على حقوق آل بيت النبي ﷺ ، كما جاء

في العقيدة الطحاوية تأليف الإمام أبي جعفر الصحاوي الحنفي من علماء القرن الثالث الهجري :«ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد بريء من النفاق».

وكما جاء في العقيدة الواسطية تأليف شيخ الإسلام بن تيمية الحنبلي من علماء القرن السابع الهجري في سياق سرد عقائد أهل السنة والجماعة قال: ويحبون آل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم «أذكركم الله في أهل بيتي»، وقال أيضاً للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[١].

العلاقة بين آل البيت وأصحاب النبي ﷺ:

حفظ الصحابة رضوان الله عليهم وصية رسول الله ﷺ في آل بيت النبي ﷺ ، فهذا أبوبكر يقول لعليٍّ رضي الله عنهما جميعًا: «والذي نفسي بيده، لقرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصِلَ من قرابتي»، ويقول: «ارقُبوا محمَّدًا ﷺ في أهلِ بيتِه» وكلا الحديثين رواهما البخاري في صحيحه، ويقول: «أفتِنا يا أبا الحسَن»، وصلَّى رضي الله عنه يوماً العصرَ ثم خرج يمشي، فرأى الحسَنَ يلعَب مع الصبيانِ، فحمَلَه على عاتقه وأخذَ يرتجز:

بأبي شبِيهٌ بالنَّبيِّ   لا شَبيــهٌ بعـــليٍّ

وعَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ معَه يَضحَك.

حينما وضع عمر الديوانَ ليوزِّع بَيتَ المال بدأ بآلِ بَيت رسول الله ﷺ، وقد ظنَّ الناسَ أنه يبدأ بنفسه فلم يفعل، بل قال: «ضَعوا عمرَ حيث وضعَه الله» ، فكان نصيبُه في نوبةِ بَني عديّ وهم متأخِّرون عن أكثر بطونِ قريش.

أمّا عائشة رضي الله عنها فأصحُّ الطرق في مناقبِ عليٍّ رضي الله عنه كان مِن روايَتها، فقد روَت حديثَ الكساء في فضلِ عليّ وفاطمة والحسَن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، وكانت تحيل السائلين والمستَفتين إلى عليٍّ رضي الله عنه، وطلبَت رضيَ الله عنها بعد استشهادِ عُثمان رضي الله عنه أن يلزَمَ الناسُ عليًّا، فقد سَألها عبد الله بن بدِيل بن وَرقاء

(١) أخرجه ابن أبي شيبة.

الخزاعي: من يبايع؟ فقالت: «الزَم عَليًّا».

وقالَ رَجلٌ لعبدِ الله بنِ عمَر رضي الله عَنهما: إني لأبغِضُ عَليًّا، فقال له ابنُ عمَر: «أبغَضَك الله، أتُبغِض رجلاً سابقَةٌ من سوابقه خير من الدنيا وما فيها؟!».

وكذلك آل البيت يبادلون الصحابة مشاعر المحبة والتقدير، فعن أبي جُحيفةَ ـ وهو الذي كان عليٌّ يسمّيه وَهبَ الخير ـ قال: قال لي عليٌّ: «يا أبا جُحيفةَ، ألا أخبرك بأفضل هذه الأمّة بعد نبيِّها؟ قال: فقلت: بلى، قال أبو جحيفةَ: ولم أكن أرَى أنَّ أحَدًا أفضل منه، قال: أفضلُ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر، وبعد أبي بكر عمر، وبعدهما آخر ثالث لم يسمِّه»(أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وُضِع عمرُ على سريره ـ يعني بعد وفاته، فتكنَّفَه النّاس يدعون ويصلّون قبل أن يرفعَ، قال ابن عباس: وأنا فيهم، فلم يَرُعني إلاّ رَجلٌ أخَذ بمنكبي فإذا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فترحّم على عمر وقال: ما خلّفتَ أحدًا أحبّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عَمَله منك، وايمُ الله إن كنتُ لأظنّ أن يجعلَكَ الله مع صاحبَيك، وحَسِبتُ أني كثيرًا أسمع النبيَّ ﷺ يقول: «ذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر» و«دخلتُ أنا وأبو بكر وعمر» و«جئتُ وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر».

أمّا عائشةُ رضي الله عنها فإنَّ عليًّا رضي الله عنه بالرغم مما وقع بينهما من خلاف في شأن قتلة عثمان كان يكرمها ويجلُّها ويحفَظ لها مكانها من رسول الله، فقد وقَف رجلان على بابِ دارِها في البصرة، فقال أحدهما: جُزيتِ عنّا أمَّنا عقوقًا، وقال الآخَر: يا أمَّنا، توبي فقد أخطأتِ، فبلغ ذلك عليًّا فبعث القعقاعَ بنَ عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كانَ عليه، فأحالوا عليه الرّجلين، فضربهما مائةَ سَوط وأخرجهما من ثيابهما».

ويَروي جعفرُ بن محمّد عن أبيه رضي الله عنهم جميعًا قال: «لقد رَأى عليّ رضي الله عنه طلحةَ في واد ملقى ـ يعني بعد حرب، فنزل فمسَح الترابَ عن وجهه وقال: عزيزٌ عليَّ ـ أبا محمّدٌ ـ أن أراك مجندَلاً، إلى الله أشكو عُجَري وبجَري. فترحَّم عليه ثم قال: ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة»، وكان يقول : إني لأرجو أن أكونَ وطلحةُ والزّبير ممّن قال الله

فيهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (سورة الحجر، آية٤٧).

ومن صور التلاحم الذي كان بين النبي ﷺ والصحابة و التابعين ما كان بينهم من المصاهرة، فقد تزوّج ﷺ عائشةَ وحَفصَة ابنتي أبي بكر وعمر ورَملةَ بنت أبي سُفيان، وعليٌّ تزوَّج فاطمةَ بنتَ رَسول الله صلّى الله عليه وآله وأصحابه وسلّم، وعثمانُ تزوَّج رقيَّة وأمَّ كلثوم ابنتي رسولِ الله ﷺ، وعليٌّ سمَّى ثلاثةً من أبنائه أبا بكرٍ وعمرَ وعثمان، وزوَّجَ ابنَتَه أمَّ كلثوم لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، والحسن تزوَّج أمَّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، وتزوَّج حفصةَ بنت عبدِالرّحمن بن أبي بكر، و سمّى أولاده أبا بكر وعمرَ وطلحة، والحسين سمَّى ولدَه عمر، ومعاويةُ بن مروانَ بنِ الحكم الأمويّ تزوَّج رَملة بنت عليّ، وعبدُ الرّحمن بنُ عامر بنِ كريز الأموي تزوَّج خديجة بنتَ علي، وهذا الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه وعن آبائه جدُّه لأمِّه أبوبكر الصديق رضي الله عنه، فأمُّه فَروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمُّ القاسم هي أسماءُ بنتُ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر، ولهذا كان الإمامُ جعفَر يقول:«ولدَني الصّدِّيق مرَّتَين».

وما تدل عليه الأحاديث الصحيحة من الموالاة والمحبة بين الصحابة ولاسيما الخلفاء الأربعة الراشدين المهديين هو ما يتفق مع العقل والمنطق وما تقتضي به طبائع الأشياء فهم الذين وصل القرآن والإسلام للناس على أيديهم وهم أحق من يلتزم بقيم الإسلام، ولاسيما ما أوجب الله من الأخوة بين المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (سورة الحجرات، آية١٠)، والموالاة بينهم: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (سورة التوبة، آية٧١)، والتواد والتراحم «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (متفق عليه).

ومعروف أن عصرهم هو العصر الذهبي للإسلام الذي طبقت فيه أحكام الإسلام وتعاليمه أكمل من أي عصر جاء بعده.

فلا يلتفت بعد هذا إلى ما ورد في بعض التواريخ من أخبار لا تتفق مع الأحاديث الصحيحة التي أوردنا نموذجاً منها، لأن أخبار التاريخ على خلاف الأحاديث الشريفة لم تخضع للتوثيق والتدقيق للمعايير الصارمة في تقييم الأخبار.

هل آل البيت معصومون؟

ولا يفهم من الأحاديث الواردة في الوصية بهم اعتقاد عصمتهم ولزوم طاعتهم، بل المقصود توقيرهم ومعرفة مكانهم من رسول الله ﷺ ، كما هو ظاهر النصوص، وهو ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم منه ﷺ.

ولا يحتج على عصمتهم ووجوب اتباعهم بالحديث الذي روي من طرق في غير الصحيحين «إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

فهذا الحديث بصرف النظر عن تضعيف علماء الحديث له، فهو لا يدل على وجوب إتباع كل فرد من أهل البيت ، لأنهم متعددون، ويختلفون في مذاهبهم وآرائهم وفتاواهم، والإتباع إنما يكون للواحد كما أوجب الله إتباع القرآن واتباع الرسول ﷺ.

غاية ما يدل عليه الحديث، كما قال القرطبي في المفهم: «هذه الوصية وهذا التأكيد العظيم يقتضي وجوب احترام آل النبي محمد، وإبرارهم وتقديرهم ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لاعذر لأحد في التخلف عنها»أ. هـ.

فالأمر بالإقتداء بهم مثل الأمر بالإقتداء بالخلفاء الراشدين في حديث العرباض بن سارية حيث ورد:«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»، والخلفاء الراشدون كما عليه أهل السنة والجماعة ليسوا معصومين، ولا يستقلون بالتشريع، ويجوز عليهم الخطأ، ويستدرك بعضهم على بعض، فأحكامهم في مقام الاجتهاد، الذي يكون لصاحبه الأجر إذا أخطأ، والأجران إذا أصاب.

الوصية الرابعة

الوصية بالأنصار

١- عن أَنَسَ بن مَالك قال :مَرَّ أبو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رضي الله عنهما بمَجْلس من مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ. فقال: ما يُبْكِيكُمْ. قالوا :ذَكَرْنَا مَجْلسَ النبي ﷺ منَّا، فَدخلَ على النبي ﷺ فَأَخْبَرَهُ بذَلكَ. قال: فَخَرَجَ النبي ﷺ وقد عَصَبَ على رَأْسه حَاشِيَةَ بُرْدٍ قال :فَصَعدَ الْمِنْبَرَ ولم يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذلك الْيَوْم، فَحَمدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال:« أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ ،إِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وقد قَضَوْا الذي عليهم وَبَقِيَ الذي لهم، فَاقْبَلُوا من مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عن مُسِيئِهِمْ » (متفق عليه).

٢- عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال خَرَجَ رسول اللَّه ﷺ وَعَلَيْه ملْحَفَةٌ مُتَعَطِّفًا بها على مَنْكِبَيْه وَعَلَيْه عِصَابَةٌ دَسْمَاءُ حتى جَلَسَ على الْمِنْبَرِ فَحَمدَ اللَّه وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: «أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الناس ، فإن الناس يَكْثُرُونَ وَتَقِلُّ الْأَنْصَارُ حتى يَكُونُوا كَالْملْحِ في الطَّعَام، فَمَنْ وَلِي منْكُمْ أَمْرًا يَضُرُّ فيه أَحَدًا أو يَنْفَعُهُ فَلْيَقْبَلْ من مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عن مُسِيئِهِمْ » (أخرجه البخاري).

٣- عن أَنَس عن النبي ﷺ قال: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ» (متفق عليه).

٤- عن الْبَرَاءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ، أو قال: قال النبي ﷺ: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمنٌ ولا يُبْغضُهُمْ إلا مُنَافقٌ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ الله »(متفق عليه).

٥- عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قال: « لَا يُبْغضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمنُ باللَّهِ وَالْيَوْم الْآخرِ » (أخرجه مسلم).

٦- عن أَنَسَ بن مَالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَتْ امْرَأَةٌ من الْأَنْصَارِ إلى رسول اللَّه ﷺ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لها فَكَلَّمَهَا رسول اللَّهِ ﷺ فقال: «وَالَّذي نَفْسِي بيده إِنَّكُمْ أَحَبُّ الناس إلي، مَرَّتَيْنِ » (أخرجه البخاري).

٧- عن أَنَسَ بن مَالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ رأى صبياناً ونساءً مقبلين من عرس فقام نبي الله ﷺ مُمْثِلًا [١] فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي، اللهم أنتم من أحب الناس إلي- يعني الأنصار» (متفق عليه).

مَنْ هم الأنصار، ولمَ استحقوا هذا الفضل؟

قال الحافظ ابن حجر في الفتح:«الأنصار: هو جمع ناصر كأصحاب وصاحب، أو جمع نصير كأشراف وشريف، واللام فيه للعهد، أي: أنصار رسول الله ﷺ والمراد:(الأوس والخزرج) وكانوا قبل ذلك يعرفون:« ببني قَيْلة » بقاف مفتوحة وياء تحتانية ساكنة، وهي: الأم التي تجمع القبيلتين، فسماهم رسول الله ﷺ الأنصار، فصار ذلك علماً عليهم وأطلق أيضاً على أولادهم وحلفائهم ومواليهم أ.هـ.

ويكفيهم أن الله أثنى عليهم بما صار قرآناً يتلى ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الحشر، آية٩)، وإنها لعمر الله صفات يعز وجودها في الناس، وأعز من ذلك اجتماعها في فرد أو جماعة .

قال سيد قطب رحمه الله «في ظلال القرآن» في تعليقه على هذه الآية الكريمة: «وهذه صورة مضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، وهذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلاماً طائرة ورؤىً مجنحة ومُثُلاً عليا صاغها خيال محلق، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : دار الهجرة ، وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين كما تبوءوا فيها الإيمان، وكأنه منزلة لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ومنزلهم وموطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويؤبون إليه ويطمئنون له، كما يؤب المرء ويطمئن إلى الدار.

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ .. ولم يعرف تاريخ البشرية كلها حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء ...

(١) أي انتصب قائماً.

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا ﴾ .. مما يناله المهاجرون من مقام بفضل في بعض المواضع ومن مال يختصون به كهذا الفيء فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا ...

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .. والإيثار على النفس مع الحاجة قيمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً، وكانوا كذلك في كل مرة، وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .. فهذا الشح شح النفس هو المعوق عن كل خير، لأن الخير بذل في صورة من الصور: بذل في المال، بذل في العاطفة، بذل في الجهد، وبذل في الحياة عند الاقتضاء، وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائماً أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي، ومن يوق شح نفسه فقد وقي هذا المعوق عن الخير فانطلق إليه معطياً باذلاً كريماً، وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه». أ.هـ

وقد تضمنت الآية الكريمة النص على اجتماع الصفات السامية الخمس في الأنصار:

(١) تبوؤهم للإيمان.

(٢) محبتهم لمن هاجر إليهم، فلا يكرهونهم كما هي عادة الناس في كراهة الأجانب عنهم لمجرد أنهم كذلك.

(٣) سلامة قلوبهم من الحسد، فلا يحسدون الغرباء عنهم على ما نالهم من حظ من حظوظ الدنيا.

(٤) إيثار غيرهم على أنفسهم، ولو كانوا هم أنفسهم في حاجة لما يؤثرون به غيرهم.

(٥) وقايتهم من شح النفس وكزارة الطبع.

وحق لمن كانت له هذه الصفات أن يوالى ويحب، وأن تكون موالاتهم ومحبتهم من الإيمان، وأن يوصي بذلك رسول المحبة والرحمة ﷺ.

حقوق الأنصار:

١- حبهم حباً يظهر في توقيرهم والثناء عليهم، والذب عنهم ونشر محاسنهم ، لما مرّ من الأحاديث الحاثة على ذلك ، ولأن محبتهم برهان محبة الله ومحبة رسول الله ﷺ، ومحبة دين الإسلام .

قال ابن تيمية: وقوله ﷺ:«آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار»، فإن من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر وكان محباً لله ولرسوله أحبهم قطعاً فيكون حبه لهم علامة الإيمان الذي في قلبه ومن أبغضهم لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه».

وهذه المحبة لعمومهم، قال ابن حزم في الإحكام: «وكذلك حب الأنصار فضل في جميع الأنصار لايعدوهم إلى غيرهم، ولا يقتصر به على بعضهم دون بعض».

٢- البراءة من بغضهم ، لما مرّ من الأحاديث، حتى عدّ أهل العلم بغضهم من الكبائر، قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر:«الكبيرة الرابعة والخامسة والستون بعد الأربعمائة، (بغض الأنصار وشتم واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين).

أخرج البخاري أنه ﷺ قال:«من علامة الإيمان حب الأنصار ومن علامة النفاق بغض الأنصار»، وأخرج الشيخان أنه ﷺ قال في الأنصار:« لايحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»، وأخرج مسلم :«لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر» أ.هـ.

٣- الرضا بما كان من الواحد منهم من إحسان وإن قلَّ، والتجاوز عمن أساء منهم ، لأمره ﷺ بذلك، كما جاء في حديث ابن عباس السابق وفيه:« فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ أَمْرًا يَضُرُّ فيه أَحَدًا أو يَنْفَعُهُ، فَلْيَقْبَلْ من مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عن مُسِيئِهِمْ » (أخرجه البخاري).

٤- محاولة التأسي بهم في نصرة الله ونصرة رسوله ونصرة الإسلام، ورياضة النفس على التخلق بالصفات السامية التي وصفهم الله بها، لأن المحبة تقتضي المشاكلة.

الوصية الخامسة

الوصية بطاعة ولاة الأمر :

١-عن أم الحصين رضي الله عنها قالت : حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فرأيت أسامة أو بلالاً يقود بخطام ناقة رسول الله ﷺ والآخر رافع ثوبه يستره به من الحر حتى رمى جمرة العقبة ثم أنصرف فوقف الناس وقد جعل ثوبه من تحت إبطه الأيمن على عاتقه الأيسر ثم ذكر قولاً كثيراً وكان فيما يقول ﷺ : «إن أُمِّر عليكم عبدٌ مُجَدعٌ أسود يقودكم بكتاب الله فأسمعوا وأطيعوا » (أخرجه مسلم وابن حبان في صحيحهما).

٢-وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال : «أيها الناس أطيعوا ربكم وصلوا خمسكم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا أمراءكم»، وفي لفظ: «ذا أمركم»، وفي لفظ: «أطيعوا ولاة أمركم تدخلوا جنة ربكم » (أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح» وأخرجه ابن حبان الحاكم).

٣-عَنْ الْعِرْبَاضِ بْن سَارِيَةَ قَالَ:«وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاة الْغَدَاة مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ منْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ منْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ هَذه مَوْعظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ:«أُوصيكُمْ بتَقْوَى اللَّه وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة وَإِنْ كان عَبْدٌ حَبَشيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ منْكُمْ يَرَى اخْتلَافًا كَثيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الْأُمُور فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلكَ منْكُمْ فَعَلَيْه بسُنَّتي وَسُنَّة الْخُلَفَاء الرَّاشدينَ الْمَهْديِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجذ» (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ).

وجوب طاعة الولاة :

من الأحاديث المذكورة يظهر لنا جلياً خطر الولاية وأهميتها لاستقامة الأمور، وأن ذلك كله لايحصل إلا بطاعة هؤلاء الولاة والسمع لهم ، وقد أمر الله تعالى بذلك لهم في كتابه فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (سورة النساء، آية٥٩).

قال ابن عطية في المحرر والوجيز في المقصود بأولي الأمر: «الأمراء على قول الجمهور: أبي هريرة وابن عباس وابن زيد وغيرهم» .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي لما ذكر الخلاف في المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ هل هم الأمراء أم العلماء ؟ :« والصحيح عندي أنهم الأمراء والعلماء جميعاً، أما الأمراء فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم، وأما العلماء فلأن سؤالهم واجب متعين على الخلق» أ . هـ

وقال الفخر الرازي عند تفسير هذه الآية: «اعلم أنه تعالى لما أمر الرعاة والولاة بالعدل بالرعية أمر الرعية بطاعة الولاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا » أ . هـ

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء، آية٨٣): « في أولي الأمر قولان: أحدهما: إلى ذوي العلم والرأي، والثاني: إلى أمراء السرايا، وهؤلاء رجحوا هذا القول على الأول، قالوا: لأن أولي الأمر الذين لهم أمر على الناس، وأهل العلم ليسوا كذلك» أ . هـ

وهذه التوجيهات والأوامر الإلهية هي ما أكده الناصح الأمين في سنته فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «أسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» (أخرجه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك » (أخرجه مسلم).

وعن وائل بن حجر رضي الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال : «يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويبخسونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سأله ؟ فقال ﷺ : «أسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حملتم »(أخرجه مسلم).

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج عن السلطان شبراً مات ميتة الجاهلية » (متفق عليه).

حدود الطاعة :

مما سبق يظهر جلياً تعظيم الشريعة لأمر السمع والطاعة لولاة الأمر سواءً كانوا أبراراً أم فجاراً، فإن في ذلك حقن الدماء وبقاء أحوال الناس في استقامة وسلام، ولكن مما ينبغي أن يعلم أن السمع والطاعة لهم إنما هي في المعروف، كما قال عليه الصلاة والسلام : «إنما الطاعة في المعروف» (متفق عليه).

فالطاعة المطلقة من خصائص الإلهية، فإذا أمروا بمعصية أو أمر مخالف للشرع فلا سمع ولاطاعة، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (متفق عليه)، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهنا تنبيه دقيق يخفى على كثير من الناس، وهو أن عدم طاعتهم في المعصية لا يلزم منه الخروج عليهم، بل عدم إتيان تلك المعصية التي أمروه بها بخصوصها، مع لزوم الطاعة العامة التي دلت عليها النصوص الكثيرة المتكاثرة التي سقنا طرفاً منها فيما سبق، و قصة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مع المعتصم والواثق برهان على فهم السلف لهذا المعنى، فقد كان المعتصم والواثق يأمران بالقول بخلق القرآن فيأبى عليهما الإمام أحمد ومع هذا بقي على الطاعة في الجملة ومنع من الخروج عليهما رحمه الله .

وأمر آخر أنه لا تلازم بين السمع والطاعة العامة ومحبتهم، كما لايلزم من بغضهم لفجور أو ظلم الخروج عليهم، وهذا المقام مزلة أقدام، وقد حصل كثير من الفساد بسبب عدم فهمه، فربما أبغضوا من أجل فجورهم مع لزوم السمع والطاعة لهم في الجملة ولا ضير في ذلك، ومما يدل على هذا التفريق ما أخرجه مسلم عن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم ويصلُّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، و تلعنونهم و يلعنونكم، قال : قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم ؟ قال : لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة».

تحريم الخروج على الأئمة :

قال الإمام النووي في شرحه لمسلم :«وأما الخروج عليهم - يعني الأئمة - وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرت» أ هـ.

ونقل الحافظ بن حجر في الفتح عن ابن بطال قوله : «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلّب، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه ، لما في ذلك من حقن للدماء، وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح» أ. هـ.

وقال الإمام الطحاوي :«ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولاننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصيته، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة» أ. هـ.

وما هذا الإجماع من السلف رحمهم الله على هذه القضية إلا لما في الخروج من الفساد العريض، ووقوع أحوال الناس في اضطراب لا يستقيم لهم معه دين ولا دنيا .

ومن المأثور عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : «إن الناس لا يصلحهم إلا إمام: برٌّ أو فاجرٌ، إن كان فاجراً عبد المؤمن فيها ربه، وحمل الفاجر فيها إلى أجله» (أخرجه الطبري في تفسيره).

وقال أبو الحارث الصائغ : سألت أبا عبدالله - يعني أحمد بن حنبل - في أمر كان حدث ببغداد وهمَّ قوم بالخروج، فقلت : يا أبا عبدالله ما تقول في الخروج مع هؤلاء ؟ فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول : «سبحان الله، الدماء، الدماء لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة، يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه - يعني أيام الفتنة - قلت : والناس اليوم أليسوا هم في فتنة ؟ قال : وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمَّت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك » .

النصيحة لولاة الأمر :

عن تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « الدين النصيحة، قلنا : لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (أخرجه مسلم).

وإن من أعظم حقوق الولاة على الرعية النصح لهم وهو أشمل مما يتبادر إلى الأذهان من الموعظة أو الأمر والنهي، فالنصيحة لولاة الأمر تكون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودلالتهم على الخير وتحذيرهم من الشر ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » (أخرجه مالك في الموطأ وابن حبان في صحيحه).

كما تكون بصفاء القلب لهم وعدم إضمار الخيانة والغش لهم أو إرادة السوء بهم ، فعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في خطبته بالخيف بمنى: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امريء مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين » (أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه).

كما تكون بالدعاء لهم بالتوفيق والإعانة، فإن بركة ذلك تعم رعيتهم، ولهذا كانت مقولة الفضيل بن عياض المشهورة :«لو كانت لي دعوة مستجابة لخبأتها للإمام»، وهذا من فقه هذا الإمام رحمه الله .

ومن يتأمل التاريخ يرى أن أول مصيبة أصيب بها الإسلام هو خروج ثلة من المسلمين على الإمام الراشد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم على الإمام الراشد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا يكاد يوجد خروج عن طاعة ولي والأمر أنتج خيراً للأمة أو لدينها .

الوصية السادسة

حرمة المسلم :

١-عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته ﷺ يوم النحر بمنى عام حجة الوداع : قال:قال ﷺ:
« أي يوم هذا ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال : أليس يوم النحر ؟
قلنا : بلى، قال : فأي شهر هذا ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال :
أليس بذي الحجة ؟ قلنا: بلى، قال : أي بلد هذا ؟ قال : أليس البلدة ؟ قلنا : بلى، قال :
فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في
بلدكم هذا » (متفق عليه).

٢-وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع، استنصت الناس
فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (متفق عليه).

تمهيد :

إن الأخوة الإسلامية هي أقوى الروابط وأمتنها قال تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(سورة الحجرات، آية١٠) وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (سورة التوبة، آية٧١).

ولقد جاءت شريعة الإسلام بتقرير ذلك وتأكيده، فأمرت بكل ما شانه توثيقها ومنعت من كل ما هو سببٌ أو ذريعة إلى الإخلال بها .

ولقد بيَّنت الشريعة بياناً شافياً لا لبس ولا خفاء فيه حقوق المسلم على المسلم، وبينت عظم شأن المسلم وحرمته، فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، ولا زال نبي الرحمة والهدى يوصي بحفظ هذه الحقوق، وعدم تجاوز هذه الحدود، حتى كانت هذه المقولة المؤثرة منه في ذلك المحفل العظيم والمشهد الكبير، وقد أكد حرمة المسلم بكل المؤكدات التي تناسب المقام فصلى الله عليه وسلم ما أنصحه وأشفقه على أمته .

نظر عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الكعبة ثم قال : «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» (أخرجه الترمذي وقال:حسن غريب).

حرمة دم المسلم :

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء، آية٩٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (متفق عليه)، وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (متفق عليه)، وقال عليه الصلاة والسلام: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق» (أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي وابن ماجه)، وقد جعل النبي ﷺ عنوان إسلام المسلم سلامة المسلمين من لسانه ويده فقال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (متفق عليه).

حرمة عرض المسلم :

إن حرمة عرض المؤمن لا تقل شأناً عن حرمة دمه، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (سورة الأحزاب، آية٥٨).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بأعلى صوته: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في قعر بيته» (أخرجه ابن حبان وأحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن غريب). ويكفي أخي المسلم لتعرف خطورة هذا الباب أن تسمع حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» (أخرجه الحاكم وصححه). فسبحان الله ما أعظم شأن المسلم وأخطر عرضه!

حرمة ماله :

يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» (أخرجه أحمد).

وقال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان» (أخرجه مسلم).

وجماع الترهيب من كل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه: « أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» (أخرجه مسلم).

الوصية السابعة

الوصية بالنساء :

١-عن عمرو بن الأحوص قال : حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكَّر ووعظ فقال : «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عَوانٍ عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرب غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئَنَ فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهنَّ أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن » (أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث الأحوص وقال الترمذي : حسن صحيح)، وفي مسند الشهاب من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ذلك كان في خطبة يوم النحر في حجة الوداع.

٢-وعن جابر في حديثه الطويل الذي أخرجه مسلم في صحيحه في ذكر صفة حج النبي ﷺ عند ذكر خطبته ﷺ في عرفة قال فيها : «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله » وظاهر سياق الحديثين يدل على تغايرهما فيحتمل بذلك أن يكون ﷺ قد ذكر الوصية بالنساء في حجة الوداع في خطبته في عرفة، ثم في خطبته يوم النحر .

المرأة في الإسلام:

المرأة في المجتمع المسلم بنت مصونة يحافظ عليها أبوها كجزء من حياته، و زوجة عزيزة مكفولة من زوجها مقضية حوائجها مكفية مؤنة الحياة سكن لزوجها وهو سكن لها يتبادلان المودة والرحمة، و أم تتربع في مملكة رعيتها أولادها وأحفادها، أو قريبة يقع على عاتق قريبها القادر حق رعايتها وحمايتها .

وفي المقابل فإن المرأة في بعض المجتمعات، قد تكون أنثى تجذب أنظار وشهوات الذئاب البشرية التي لا تريدها إلا للمتعة فحسب، أو زوجة كادحة تأوي إلى بيتها كالَّةً مرهقة لتشارك الرجل حتى في دفع أقساط البيت والسيارة، أو أماً يقذفها أولادها في إحدى دور الرعاية الاجتماعية بعد كبرها تخلصاً من عبء رعايتها ثم لا سؤال ؟

بر الوالدة :

لقد قرن الله وجوب بر الوالدين بوجوب توحيده فقال عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (سورة الإسراء، آية٢٣).

قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في أحكام القرآن عند تفسير هذه الآية: «برُّ الوالدين ركن من أركان الدين، وبرهما يكون في الأقوال والأعمال».

وقد أمر سبحانه بإحسان صحبتهما ولو كانا كافرين يلحان على ولدهما بالكفر، فقال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة لقمان، آية١٥).

وقد بينت السنة المطهرة أن أولى الوالدين بالبر وأحقهما بإحسان الصحبة الوالدة، فقد سأل رجلٌ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ فقال :« أمك »، قال : ثم منْ ؟ قال: «أمك»، قال: ثم منْ ؟ قال :« أمك »، قال : ثم منْ ؟ قال : «أبوك » (أخرجه البخاري ومسلم).

فالأم مقدَّمة في البر على الأب بثلاث مراتب، والجنة تحت أقدام الأمهات كما جاء في الحديث الذي أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع عن أنس بسند صحيح.

وفي المقابل فقد جعل الشرع عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ففي حديث أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا قالوا بَلَى يا رَسُولَ اللَّه قال الْإِشْرَاكُ بِاللَّه وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وكان مُتَّكِئًا فقال أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قال فما زَالَ يُكَرِّرُهَا حتى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ » (متفق عليه).

حسن عشرة الزوجة :

بين القرآن الكريم أن غاية الزواج وجود السكن بين الزوجين وقيام المودة والرحمة بينهما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (سورة الروم، آية٢١).

وقد أمر الله جل وعلا بإحسان عشرة الزوجة وإلا كان المخرج الفراق بإحسان فقال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ...﴾ (سورة النساء، آية١٩) وقال: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (سورة البقرة، آية٢٢٩)، وأوجب لها من الحقوق مثل الذي عليها فقال: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (سورة البقرة، آية٢٢٨).

وقد بيَّن المصطفى ﷺ بكلام جامع المعاشرة بالمعروف فقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم» (أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح)، وقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (أخرجه الترمذي من حديث عائشة).

و فصَّلت السنة معاشرة الزوجة، فقد سأل معاوية بن حَيْدَة رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت» (أخرجه أبو داود).

وأشار ﷺ إلى أن هذه العشرة الحسنة والحياة السعيدة لا تقوم إلا على أساس التنازل وغض الطرف فقال: «لا يفرك -أي لا يبغض- مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» (أخرجه مسلم). وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى في آية العشرة: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء، آية١٩).

الإحسان إلى البنات:

تعود الناس في كثير من المجتمعات وفي العصور المختلفة حب البنين وإيثارهم على البنات، لذلك حرصت شريعة الإسلام على تقرير العدل بين الأولاد فمن ذلك المساواة بين الأولاد الذكور والإناث في العطاء والهبة، فقد قال ﷺ في عطية بشير الأنصاري والد النعمان بن بشير لما أراد أن يخصه بعطاء دون سائر إخوته: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» (متفق عليه).

وقد كان بعض السلف يقول بوجوب العدل بين الأولاد حتى في القُبَل.

وعنيت نصوص السنة بالتحذير من الإخلال بذلك، فقد قال ﷺ: «اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة» (أخرجه النسائي)، والمعنى: ألحق الحرج -الإثم- بمن ضيع حق المرأة واليتيم.

كما رغب في الرعاية الحسنى لهن، فرتب على العناية بالبنات الستر من النار، فقال ﷺ: «من أبتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار» (متفق عليه) .

بل أعظم من ذلك الوعد له بمرافقته ﷺ في الجنة ، فقد أخرج مسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وضم أصابعه».

الوصية الثامنة

الوصية بالخدم :

١-عن انس قال : كان آخر وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر بها في صدره وما يفيض بها لسانه: «الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» (أخرجه الحاكم وابن حبان، وأحمد من حديث أم سلمة).

٢-وعن علي بن أبي طالب قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ : «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» (أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه) .

تمهيد :

كان الأرقاء والعبيد يعملون في حقول أسيادهم ويكلّفون من العمل فوق ما يطيقون، ولم يكونوا يأكلون من الطعام إلا بقدر ما يضمن بقاءهم أحياء لخدمة الأسياد، وهم مع ذلك في أثناء العمل يساقون بالسياط لا لشيء إلا لإشباع نزوات السادة الذين كانوا يتلذذون بتعذيب هؤلاء المساكين الكادحين، هذه هي حال الخدم الأرقاء عند الرومان.

وليس حالهم عند غيرهم من الفرس والهند والعرب ببعيد، حتى جاء الرحيم الرءوف ﷺ فأعطى العبيد حقوقاً تلزم السادة في الإسلام، وجعلهما في التكليف والأوامر سواسية، فأعلى من شأن سلمان الفارسي المولى، ورفع صهيب الرومي، وقال في بلال إني أسمع دُفّ نعليك في الجنة، وجعل العلاقة بينهم وبين السادة علاقة أخوة لا علاقة استعلاء واستعباد فقال عليه الصلاة والسلام : «إن إخوانكم خولكم» (متفق عليه).

ولا زال عليه الصلاة والسلام يوصي بهم خيراً حتى كانت الوصاة بهم آخر ما وصى به مع الوصية بالصلاة.

الإحسان إلى الخدم :

أمرت الشريعة بالإحسان إلى الخدم وتقدمت صور تلك الأوامر حتى شملت جميع المناحي:

ففي الإحسان إليهم من الناحية النفسية أمر بمراعاة مشاعرهم في طريق المناداة فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يقلْ أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» (متفق

عليه)، وكذا مراعاة مشاعرهم ساعة تناول الطعام فقال: « إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين، فإنه ولي علاجه » (متفق عليه)، يعني: فهو الذي صنعه.

وفي الإحسان إليهم في النواحي الجسدية نهى عن تكليف الخدم فوق طاقتهم، فقد قال ﷺ: «ولاتكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » (متفق عليه).

ورهب من ضربهم وحذّر منه، فقد قال أبو مسعود الأنصاري : كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً : « اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه » فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هو حرٌّ لوجه الله، فقال : «أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار» (أخرجه مسلم) .

حقوق الخدم :

إن الخدم في الإسلام ليسوا خلقاً دون خلق السادة، بل هم وإياهم سواء اقتضت حكمة الله أن يحصل هذا الفارق بينهما، ليتم ما أراد الله من عمارة الأرض، وليكون ذلك ابتلاء لكليهما، وقد بيّن الله ذلك في قوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (سورة الزخرف، آية٣٢).

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (سورة النساء، آية٢٥). وليس هناك لفظ يدل على المساواة بين الناس أبلغ من لفظ بعضكم من بعض.

وقد ضمن الإسلام للخدم حقوقهم وألزم السادة بها وهي إجمالاً :-

١- إطعامهم من جنس طعام السادة .

٢- إلباسهم من جنس لباس السادة .

٣- عند تكليفهم بأعمال فيجب أن تكون في حدود الطاقة .

٤- إعانتهم على العمل عند تكليفهم به، تطييباً لخواطرهم، وتخفيفاً عنهم.

٥- عدم ضربهم .

٦- عدم تعييرهم .

٧- اعتبارهم إخوة في الإسلام، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن إخوانكم خولكم جعلهم

الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » (متفق عليه).

٨- المسارعة بدفع أجورهم، وعدم مماطلتهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّه: «ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ» (أخرجه البخاري).

تنبيه :

أكثر الأحاديث التي وردت في هذا الفصل وردت في الأرقاء، وبما أن الرق قد انتهى في أكثر الدول عملاً بتوقيعها على الاتفاقيات الدولية القاضية بإلغاء الرق، فإن مضمون الأحاديث ينطبق على من تَمَلَّكَ أوقاتهم ونتاج عملهم من الأجراء الخاصين (الخدم).

الوصية التاسعة

الوصية بأداء الأمانة :

١- عن أبي حُرَّة الرَّقاشي عن عمه قال : كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود عنه الناس فقال :« يأيها الناس - وذكر خطبة طويلة - وفيها ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » (أخرجه أحمد في المسند) .

٢- وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في الخطبة عام حجة الوداع: «العارية مؤداة، والزعيم غارم، والدين مقضي » (أخرجه أحمد والترمذي والبيهقي والطبراني وقال الترمذي: حسن غريب وأخرجه الدارقطني من حديث أنس وأشار إليه الترمذي).

تمهيد :

إن الأمانة في مفهومها الشرعي كلمة عظيمة ذات دلالات كبيرة هي أعم وأشمل مما قد يتبادر إلى الأذهان، قال الإمام القرطبي المالكي في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون، آية٨)، «والأمانة والعهد : يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد وغير ذلك وغاية ذلك حفظه والقيام به » أ. هـ.

ولخطر الأمانة أبت الجبال والسموات والأرض على صلابتها وقوة خلقها حملها، وحملها الإنسان قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (سورة الأحزاب، آية٧٢)، وقد وصف الله الإنسان هنا بالظلوم والجهول لا لأنه حمل الأمانة، فحملها شرف وفضيلة، ولكن لتركه القيام بها وأداء واجبها بعد أن حملها.

وقد حصل الإخلال بالأمانة في الأمة حصولاً بيّناً ففشت خيانات من يؤتمن وهذا والله مما يؤسف له أشد الأسف، ولهذا اشتدت عناية المصطفى ﷺ بها حتى في اللحظات الأخيرة، بل أخبر أنها أول ما يفقد من الدين فقال : «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة»

(أخرجه الحاكم وصححه).

واسمع إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر النبي ﷺ وهو يتحدث عن الأمانة: يقول رضي الله عنه: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا عن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال: «ينام الرجل النّومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيُّكم بايعت، لئن كان مسلماً ردَّه عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانياً ردَّه عليَّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً» (١) (متفق عليه).

فضيلة الأمانة:

لو لم يكن من فضيلة الاتصاف بالأمانة إلا أن النفوس تهفو إلى صاحبها وتجد في ضرورتها محبته وتقديره لكفى، كيف وهي امتثالٌ لأمر الله تعالى في قوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... الآية ﴾ (سورة النساء، آية٥٨)، وهي كذلك من أخص صفات المؤمنين فقد قال ﷺ «لا إيمان لمن لا أمانة له» (أخرجه الطبراني وابن حبان).

وأتم المؤمنين إيماناً أنبياء الله ورسله كل واحد منهم كان يقول لقومه: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (سورة الشعراء، آية١٠٧).

ولهذا كانت من أبرز سمات خير القرون، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ...... الحديث» (متفق عليه).

ولأهمية الأمانة في حياة المسلم أمر الشرع بالتحلي بها حتى مع أهل الخيانة فقال ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» (أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب).

خيانة الأمانة من سمات المنافقين :

فيما سبق علمنا كيف أن التحلي بالأمانة من أخص صفات المؤمنين، بل أخص المؤمنين أصحاب النفوس الزكية والهمم العلية، وفي المقابل فإن أصحاب النفوس المريضة، والهمم الوضيعة من أخص أوصافهم الخيانة والغدر ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كَذب، وإذا وَعَد أَخْلَف، وإذا ائتُمِن خانَ» (متفق عليه). وفي رواية « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس، فهو الرجل » (أخرجه البيهقي في الكبرى).

الوصية العاشرة

إخراج المشركين واليهود والنصارى من جزيرة العرب:

١- عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما أَنَّهُ قال:«يَوْمُ الْخَمِيس وما يَوْمُ الْخَمِيس»؟ ثُمَّ بَكَى حتى خَضَبَ دَمْعُهُ الْحَصْبَاءَ، فقال:«اشْتَدَّ بِرَسُول اللَّه ﷺ وَجَعُهُ يوم الْخَمِيس، وَأَوْصَى عِنْدَ مَوْتِه بِثَلَاثا : أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ من جَزِيرَة الْعَرَب، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ ما كنت أُجِيزُهُمْ، وَنَسِيتُ الثَّالِثَةَ» وقال يَعْقُوبُ بن مُحَمَّد :سَأَلْتُ الْمُغِيرَةَ بن عبد الرحمن عن جَزِيرَة الْعَرَب؟ فقال :«مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْيَمَامَةُ وَالْيَمَنُ»، وقال يَعْقُوبُ:« وَالْعَرْجُ أَوَّلُ تِهَامَةَ» (متفق عليه).

المقصود باليمن في الحديث: ما كان يميناً، أي: جنوباً عن مكة. ولا يقصد باليمن صنعاء ومخاليفها كما يوضحه كلام الشافعي الآتي.

٢- عن جَابِرَ بن عبد اللَّه قال : أخبرني عُمَرُ بن الْخَطَّاب أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّه ﷺ يقول: «لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى من جَزِيرَة الْعَرَب حتى لَا أَدَعَ إلا مُسْلِمًا» (أخرجه مسلم).

٣- عن عَائِشَةَ قالت: كان آخِرُ ما عَهِدَ رسول اللَّه ﷺ أن قال:« لاَ يُتْرَكُ بِجَزِيرَة الْعَرَب دِينَانِ» (أخرجه أحمد).

تمهيد:

لما كانت هذه الجزيرة حرم الإسلام، وداره الأولى، قبلة المسلمين، منها فاض نور التوحيد، وإليها يأوي، كما قال ﷺ :«إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها» (أخرجه مسلم)، كان من الحكمة البالغة أن لا يكون لدين غير الإسلام وجود دائم فيها، سواء كان هذا الوجود ممثلاً في شخص أو منشأة أو مؤسسة.

والمقصود بجزيرة العرب في الأحاديث الشريفة - كما يدل عليه الجمع بين النصوص - ما هو واقع تقريباً داخل حدود المملكة العربية السعودية حالياً، فقد قال ابن قدامة في المغني: «يعني أن الممنوع من سكنى الكفار به المدينةُ وما والاها، وهو: مكة واليمامة وخيبر والينبع

وفدك ومخاليفها [٤] وما والاها. وهذا قول الشافعي، لأنهم لم يُجلوا مِن تيماء، ولا من اليمن». ثم قال - أي ابن قدامة: (فكأن جزيرة العرب في تلك الأحاديث أُريد بها الحجاز) أ.هـ.

وقال البيهقي في معرفة السنن والآثار :«والحجاز: مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها، لأن تركهم سكنى الحجاز [٥] منسوخ وقد كان رسول الله ﷺ استثنى على أهل خيبر حين عاملهم فقال: «أقركم ما أقركم الله» (أخرجه مالك في الموطأ)، ثم أمرنا بإجلائهم من الحجاز، وساق الكلام إلى أن قال:يحتمل أمر النبي ﷺ بإجلائهم منها أن لا يسكنوها ويحتمل لو ثبت عنه: «لا يبقين دينان بأرض العرب»:لايبقين دينان مقيمان» أ.هـ

و قال الشافعي : «ولم أعلم أحداً أجلى أحداً من أهل الذمة من اليمن وقد كانت بها ذمة وليست اليمن بحجاز».

وقال ابن القيم في أحكام أهل الذمة، بعد أن ذكر أن الكفار: إما أهل حرب أو أهل عهد، وأن أهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان، قال عن أهل الأمان : «وأما المستأمن فهو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها، وهؤلاء أربعة أقسام : رسل، وتجار، ومستجيرون حتى يعرض عليهم الإسلام والقرآن، فإن شاءوا دخلوا فيه، وإن شاءوا رجعوا إلى بلادهم، وطالبوا حاجة من زيارة أو غيرها، وحكم هؤلاء ألا يهاجوا، ولا يقتلوا، ولا تؤخذ منهم الجزية، وأن يعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، و لم يعرض له قبل وصوله إليه، فإذا وصل مأمنه عاد حربيا كما كان» .

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله - شرح صحيح مسلم (مخطوط): - عندما سئل: هل يجوز استخدام العمال من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؟ - فقال: «نعم يجوز ذلك، لكن لا يجوز أن يسكنوا ويكونوا مواطنين، هذا ممنوع في جزيرة العرب لكن إذا دخلوا في تجارة أو عمل غير مقيمين دائماً فلا بأس»أ.هـ.

قال ابن حجر في الفتح: قوله: «قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة: في

(٤) أي توابعها من القرى والهجر.

(٥) أي: تركهم يسكنون الحجاز منسوخ.

رواية ابن سعد من طريق محمد بن سيرين، عن ابن عباس، فقال عمر : هذا من عمل أصحابك ! كنت أريد أن لايدخلها علج من السبي، فغلبتموني، وله من طريق أسلم مولى عمر قال : قال عمر : من أصابني ؟ قالوا : أبو لؤلؤة، واسمه فيروز، قال : قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحداً فعصيتموني. ونحوه في رواية مبارك بن فضالة، وروى عمر بن شبة من طريق ابن سيرين قال: بلغني أن العباس قال لعمر - لما قال : لا تدخلوا علينا من السبي إلا الوصفاء - : إن عمل المدينة شديد، لا يستقيم إلا بالعلوج» أ.هـ .

فهذا الصنيع من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو الذي أجلى اليهود إلى تيماء وأريحاء - دليل على أنه فَهِمَ من الأمر بالإخراج من جزيرة العرب أنه إخراج خاص بقاصدي الإقامة الدائمة، وأما المقيمون من هؤلاء إقامة غير دائمة فلا يشملهم النهي.

فأي برهان أوضح من هذا على دلالة حديث الأمر بإخراج اليهود والنصارى - الذي كان عمر أحد رواته - كما ثبت في صحيح مسلم.

كما يشهد لهذا ما رواه ابن خزيمة في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(سورة التوبة.آية ٢٨) قال: «إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة » أي: له عقد أمان مع المسلمين، وليس المقصود أهل الذمة بالاصطلاح الفقهي المعروف. فتُحمل إذاً دلالة حديث إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب على المنع من استيطان المشركين لجزيرة العرب، لا إقامتهم فيها للعمل المؤقت، أو التجارة كما هو شأن الكفار الوافدين.

وعدم تمكين الأفراد من الإقامة الدائمة في جزيرة العرب يدل من باب أولى على عدم جواز تمكين غير المسلمين من إيجاد منشآت أو مؤسسات، مثل أماكن العبادة، ومراكز الدعوة لدين غير الإسلام.

الوصية الحادية عشرة

التحذير من الشرك وذرائعه :

١-عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا » (متفق عليه).

٢-وعنها رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه : «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت عائشة : لولا ذلك لأبرز قبره خُشي أن يتخذ مسجداً » (متفق عليه).

٣-وعن جندب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك» (أخرجه مسلم) .

٤-وعن عَائشَةَ أَنَّ أُمَّ حَبيبَةَ وَأُمَّ سَلمَةَ ذَكَرَتا كَنيسَةً رَأَيْنَهَا بالْحَبَشَة فيها تَصَاويرُ فَذَكَرَتا للنَّبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ أُولَئكَ إذا كان فيهمْ الرَّجُلُ الصَّالحُ فَمَاتَ بَنَوْا على قَبْره مَسْجدًا وَصَوَّرُوا فيه تلْكَ الصُّوَرَ فَأُولَئكَ شرَارُ الْخَلْق عنْدَ اللَّه يوم الْقيَامَة» (متفق عليه).

تمهيد :

إن أعظم ما أمر الله به عباده توحيده وإفراده بالعبادة والقصد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ... الآية﴾ (سورة البينة.آية ٥) وما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا لأجل ذلك قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء.آية ٢٥).

وفي المقابل فإن أعظم الذنوب وأفظع الجرائم وأكبرها خطراً الشرك بالله قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (سورة النساء.آية ٤٨) وقال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ... الآية﴾ (سورة المائدة . آية ٧٢)، وقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (سورة الزمر.آية ٦٥).

ولخطورة الشرك، فقد كان تحذير الناصح الأمين ﷺ لأمته أشد التحذير من الشرك وذرائعه، وأسبابه وكل ما يدعو إليه.

أسباب الشرك وذرائعه:

لقد أثبت التاريخ أن من أهم ذرائع الشرك وأسبابه وما يدعو إليه، الغلو في الصالحين، ولا سيما الأموات منهم واتخاذ قبورهم أماكن للعبادة والبناء عليها، فعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما «أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ من قَوْمِ نُوحٍ فلما هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمْ التي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فلم تُعْبَدْ حتى إذا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ» (أخرجه البخاري).

واللات التي ذكر الله من معبودات المشركين أصله رجل صالح كان يصنع الطعام للحجاج فلما مات عكفوا على قبره، فعن أبي الْجَوْزَاءِ عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ «كان اللَّاتُ: رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الْحَاجِّ» (أخرجه البخاري).

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في شرح الصدور: «إن رفع القبور ووضع القباب والمساجد والمشاهد عليها قد لعن رسول الله ﷺ فاعله تارة، وتارة» قال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فدعا عليهم بأن يشتد غضب الله عليهم بما فعلوه من هذه المعصية، وذلك ثابت في الصحيح، وتارة يبعث من يهدمه، وتارة جعله من فعل اليهود والنصارى، وتارة قال: «لا تتخذوا قبري وثناً» وتارة قال: «لا تتخذوا قبري عيداً» أي: موسماً يجتمعون فيه، كما صار يفعله كثير، يجعلون لمن يعتقدونه من الأموات أوقاتاً معلومة يجتمعون فيها عند قبورهم ينسكون لها المناسك ويعكفون عليها فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ معه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور، ووضع الستور عليها، وتجصيصها، وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين ، فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد برزت عليه قبة فدخلها ونظر إلى القبة والستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعت حولها مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله

من الروع والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين، وأشد وسائله إلى إضلال العباد ما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وقد يحصل له هذا الشرك بأول رؤية لذلك القبر، الذي صار على تلك الصفة، وعند أول زيارة له، إذ لابد أن يخطر بباله أن هذه العناية البالغة من الأحياء بمثل هذا الميت لا تكون إلا لفائدة يرجونها منه، إما دنيوية أو أخروية، ويستصغر نفسه بالنسبة إلى ما يراه من أشباه العلماء زائراً لذلك القبر وعاكفاً عليه، ومتمسكاً بأركانه.

وقد جعل الشيطان طائفة من إخوانه من بني آدم يقفون على ذلك القبر، ويخادعون من يأتي إليه من الزائرين، يهولون عليهم الأمر ويصنعون أموراً من أنفسهم ينسبونها إلى الميت على وجه لا يفطن له من كان من المغفلين، وقد يصنعون أكاذيب مشتملة على أشياء يسمونها كرامات لذلك الميت ويبثونها في الناس ويكررون ذكرها في مجالسهم، وعند اجتماعهم بالناس، فتشيع وتستفيض، ويتلقاها من يحسن الظن بالأموات، ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب فيرويها كما سمعها، ويتحدث بها في مجالسه، فيقع الجهال في بلية عظيمة من الاعتقاد الشركي، وينذرون على ذلك الميت بكرائم أموالهم، ويحبسون على قبره من أملاكهم ما هو أحب إلى قلوبهم، لاعتقادهم أنهم ينالون بجاه ذلك الميت خيراً عظيماً، وأجراً كبيراً، ويعتقدون أن ذلك قربة عظيمة، وطاعة نافعة، وحسنة متقبلة، فيحصل بذلك مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر، فإنهم إنما فعلوا تلك الأفاعيل، وهولوا على الناس تلك التهاويل، وكذبوا تلك الأكاذيب لينالوا جانباً من الحطام من أموال الطغام الأغتام.وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبليسية تكاثرت الأوقاف على القبور، وبلغت مبلغاً عظيماً». انتهى كلامه رحمه الله.

وقال الإمام العلامة الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني: «فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منازلها، صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بدون دليل ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته، وأصحاب بلدته، يلقنونه في الطفولة: أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون عليه ويعظمونه، ويرحلون به -أي الطفل- إلى محل قبره، فينشأ قد قر في قلبه

عظمة ما يعظمون وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على ذلك الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير، بل ترى من تسمى بالعلم، وانتصب للقضاء أو الفتيا أو التدريس أو الولاية أو المعرفة، أو الإمارة والحكومة، معظماً لما يعظمونه، مكرماً لما يكرمونه، قابضاً للنذور، آكلاً ما ينحر على القبور، فيظن العامة أن هذا دين الإسلام، وأنه رأس الدين والسنام، ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر، أن سكوت العالِم أوالعالَم على وقوع المنكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر، فما كل سكوت رضى، فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلمه، فكيف يقوى فرد من الأفراد على دفعه عما أراد، فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك، واكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه، غالب -بل كل من يعمرها - هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم أو من يحسنون الظن به، من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به، ولا هتف باسمه، بل يدعون له، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شُيِّد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو لدفع ضر، ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضرر، وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور، وكتب عليها، وبنى عليها، وأحاديث ذلك واسعة معروفة، فإن ذلك في نفسه منهي عنه، ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة.

فإن قلت : هذا قبر رسول الله ﷺ قد عُمرت عليه قبة عظيمة وأنفقت فيها الأموال؟

قلت :هذا جهل عظيم بحقيقة الحال، فإن هذه القبة ليس بناؤها منه ﷺ، ولا من أصحابه، ولامن تابعيهم، ولا من تابعي تابعيهم، ولا من علماء أمته، وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره من أبنية بعض الملوك المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستمائة، فهذه أمور دولية لا دليلية يتبع فيها الآخر الأول». انتهى كلامه رحمه الله.

وقال علامة الهند الشيخ صديق حسن خان القنوجي:«ما زال أهل العلم في كل زمان ومكان، ولايزالون يرشدون الناس إلى إخلاص التوحيد، وينفرونهم عن الوقوع في أي نوع من أنواع الشرك، ولكن لما كان الشرك أخفى من دبيب النمل، كما قال الصادق المصدوق ﷺ خفي على كثير من أهل العلم. وبناء على الذهول عن العلم وقعوا في بعض أمور الشرك، ويوجد هذا الذهول في مؤلفات الفحول، وفي أبيات كثير من الشعراء خاصة من قالوا قصائد في مدح النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وسائر الملوك والسلاطين، حيث صدر من هذه الطائفة الغافلين أحياناً ما تقشعر منه الجلود وترتعد القلوب، ويخاف من أن يحل غضب الله على قارئه فضلاً عن قائله، وليس سببه إلا ذلك الذهول والغفلة لديهم أحياناً في أحوالهم ومقالاتهم، وأوكد أسباب الفتح لهذه الأبواب وتلك الأسباب هي: تشييد القبور ورفعها واتخاذ القباب عليها وتزيينها بستور فائقة، وإيقاد الشموع عليها، والاجتماع وإظهار الخضوع والاستكانة عندها، وطلب الحوائج من الأموات، ودعاؤهم من صميم القلب.

ولما توارث هذا الصنيع الآخر عن الأول، واتبع فيه الخلف السلف، واقتدى اللاحق بالسابق، تفاقم أمره، وتزايد شره، واشتد خطره. ففي كل قطر من الأقطار ،بل في كل بلد من البلاد، ومدينة من المدن، وقرية من القرى، ومجتمع من المجتمعات، وجد مثل أولئك الأموات، واعتقد فيهم جماعة من الأحياء، واعتكفوا على قبورهم، وهذا الصنيع لدى هؤلاء المصابين بالشرك أمر مستأنس، وفعل مألوف تقبله عقولهم، وتستحسنه أذهانهم، وتنبسط به نفوسهم، حتى حينما يولد لهم مولود ويصل إلى مرحلة فهم الخطاب، ما يقرع سمعه إلا مناداة أهل هذه القبور والعكوف عليها، وزيارتها، ويرى أن من تزل قدمه يدعو أحداً من أولئك الموتى، ومن يمرض فأهله الذين يريدون شفاءه يخرجون جزأً من أموالهم لذلك الميت، وعند الحاجة يتوسلون بصاحب ذلك القبر، ويقدمون إلى العاكفين والمجاورين لذلك المقبور الذين يأكلون أموال الناس بشتى الحيل ليتم ما أرادوا، وبعد ذلك عندما يكبر المولود وتكون تلك المسموعات والمرئيات مرتسمة ومستقرة في ذهنه وفكره، لأن طبع الصغير يكون قوياً في تأثره بالمؤثرات، وعندما يخرج من عند أبويه والمهد الذي تربى فيه يرى أن الناس على ما عليه أبواه، وكثيراً ما يحدث أن أول مكان بعد مولده يعرفه ويذهب إليه يكون قبراً من تلك القبور المعتقد فيها، ومشهداً من تلك المشاهد التي أبتلي بها الناس، ويلاحظ

عند هذه القبور الزحام، والضجيج والصراخ والنداء والدعاء من الأبوين أو الآخرين الكبار، فاعتقاده المأخوذ من الأبوين يحصل له تأكيد وتأييد وتعزيز آخر، وخاصة حينما يرى المباني النفيسة على هذه القبور، وجدرانها مزينة بالألوان المتنوعة وعليها ستائر فائقة، وروائح العود والعنبر منها فائحة، والسرج والقناديل والشموع في جميع نواحيها ساطعة، والسدنة الذين يعكفون عليها ويحتالون على الناس بشتى الحيل ليأكلوا أموالهم، ويرى أنهم يعظمون هذه الأمور أقصى ما يمكن، ويدخلون هولها في قلوب الناس، ويوصلون الزائرين والوافدين إلى ذلك المكان آخذين بأيديهم ومظهرين غاية التعظيم، ويضربونهم على أدنى إساءة، وبهذا يزداد اعتقاد المسكين في ذلك القبر ومقبوره، وعند ذلك يرسخ في قلبه من العقيدة الفاسدة ما لا يمكن زواله منه إلا بتوفيق الله وهدايته ولطفه وعنايته.

وناشيء كهذا عندما يطلب العلم يجد أغلب أهل العلم - منهم - متفقين على ذلك الاعتقاد بشأن ذلك الميت، ويرى أنهم يعظمونه ويعدون حبه من أعظم الذخائر عند الله، ويطعنون من يخالف في هذا الأمر الباطل، ويقولون: إن ذلك الشخص ليس من معتقدي الأولياء ولا محبي الصلحاء، فلا بد أن يزداد حب هذا المشتغل بالعلم ويرسخ اعتقاده فيهم.

وهذه البدعة العظيمة والفتنة الكبرى التي طبقت الشرق والغرب، ووقع فيها كثير من الناس -أعني الاعتقاد في الأموات - قد وصل إلى حد خدش وجه الإيمان، وفت عضد الإسلام، وأساسه تشييد القبور والتفوق في بناء القباب على المقبورين والمبالغة في التهويل أمام زوار القبور بشتى الوسائل التي توجب المهابة والتعظيم للأمور المتقدم ذكرها. ولا يستطيع أحد من العقلاء أن ينكر أن هذا الأمر من أعظم المحصلات للاعتقاد الفاسد، وأهم موجبات الوقوع في الفتن المخالفة لإخلاص التوحيد.

ومن يشك في هذا المعنى ولا يقبله عقله فعليه بالتتبع والاستقراء، واقرب هذا التتبع والبحث أن يستفسر بعض العامة عن هذا المعنى فإنه يكاد يجد عند كل فرد من أفراد العامة ما ذكرته....».

وختم القنوجي كلامه بقوله:«الحاصل أن الذي يجب علينا عند الوقوف على ما لا يجوز اعتقاده من مؤلفات المتقدمين وأشعارهم أو خطبهم أو رسائلهم أن نحكم على ذلك الموجود

بما يستحقه ويقتضيه، ونوضح للناس ما فيه، ونحذرهم عن العمل به والركون إليه، ونكل أمر قائله إلى الله مع التأويل له بما يمكن، وإبداء المعاذير له بما لا يرده الفهم ويأباه العقل، ولم يكلفنا الله سبحانه غير هذا، ولا استوجب علينا سواه». انتهى كلامه رحمه الله.

وإذا تأمل القارئ ما تقدم ظهر له السر في وصيته ﷺ بهذا الأمر وبالغ عنايته واهتمامه به.

وفي هذا المعنى يقول أحد العلماء في القرن الثامن الهجري: «ومن أعظم مكايده -يعني الشيطان- التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبد أربابها من دون الله، وعُبدت قبورهم، واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظِلٌّ ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (سورة نوح.آية٢١-٢٤)، قال ابن جرير: « وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس :أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصورهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر . فعبدوهم ».

قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال :كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام».أنتهى كلامه رحمه الله.

ويقول الإمام الشوكاني: «انظر الحكمة البالغة فيما ورد عن الشرع من الزجر عن رفع القبور وتجصيصها وتسريجها ونحو ذلك، وإني لأكثر التعجب من تلقي هذه الأمة المرحومة لما ورد عن نبيها الصادق المصدوق ﷺ من النهي عن ذلك والزجر عنه والتحذير منه مع مبالغته في ذلك كلية المبالغة، حتى كان من آخر ما قاله في مرضه الذي مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». ثم انفتح باب الشر إلى جميع أقطار الأرض وطبق مشارقها ومغاربها، وبدوها وحضرها، فإنا لله وإنا إليه راجعون» انتهى كلامه.

وما ذكره هؤلاء العلماء الأجلاء الشوكاني، والصنعاني، والقنوجي، من نتائج مخالفة وصية النبي ﷺ بعدم البناء على القبور واتخاذها مساجد، أمر واقع ومشاهد، وقد أوقعت هذه المخالفة عوام المسلمين وجهالهم في الشرك من حيث لا يعلمون، ومن أخطر ذلك وأكثره شيوعاً ما يشاهد عند قبور الصالحين، من دعاء العامة لهم بطلب النفع أو دفع الضرر ومن يتأمل القرآن الكريم يرى أن آياته الكريمة كثيراً ما تعبر عن التوحيد بإخلاص الدعاء لله وتعبر عن الشرك بدعاء غيره مثل قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (سورة الجن . آية٢٠) وقوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة العنكبوت.آية٦٥) وقوله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

(سورة غافر.آية٦٠) - وقد فسر المفسرون قوله : ﴿ عِبَادَتِي ﴾ في الآية الكريمة بدعائي - وقولـه : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (سورة الإسراء.آية٥٦-٥٧).

- والمقصود بالذين يدعون من دون الله كما ذكر المفسرون: المقربون عند الله مثل الملائكة والمسيح وعزير الذين يدعوهم المشركون - وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة يونس.آية١٠٦-١٠٧) وقوله : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ ﴾ (سورة الزمر.آية٣٨).

وفي الحديث الشريف «الدعاء هو العبادة» (أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه) وفي رواية «الدعاء مخ العبادة» (أخرجه الترمذي وقال:غريب).

وعلاقة الدعاء بالتوحيد والشرك تظهر في أن الإنسان حينما يدعو الله لجلب نفع أو دفع ضر فلأنه يعلم أن الله يسمعه ويعلم حاله وأنه قادر على إجابة دعائه، وأن الله في الوقت نفسه يسمع دعاء غيره ويعلم حاله مهما تعدد الداعون واختلفت لغاتهم وتنوعت حاجاتهم، فإذا صرفها الإنسان لغير الله كما يفعل النصارى حينما يدعون القديسين أو

مريم عليها السلام، أو كما يفعله جهال المسلمين في دعائهم لأصحاب القبور وطلبهم منهم النفع ودفع الضرر فإنهم في هذا الحالة يفعلون ذلك باعتقاد أن المدعو يسمع دعاءهم ويعلم أحوالهم ويطلع على ما في صدورهم،كما يسمع دعاء الآخرين ويعلم أحوالهم ويطلع على ما في صدورهم، كما يسمع دعاء الآخرين ويعلم أحوالهم مهما تعددوا ومهما اختلفت لغاتهم وتنوعت حاجاتهم وتباعدت أماكنهم.

والنصارى وجهال المسلمين بهذا الاعتقاد والفعل يصرفون ما هو من خصائص الله إلى غيره من المخلوقين ويصرفون نوعاً من عبادة الخالق إلى المخلوق وكل ذلك كما هو واضح مناف لتوحيد الله، ولا ينفع النصارى وجهال المسلمين اعتذارهم بأنهم لا يعتقدون أن مريم عليها السلام أو القديسين أو الأولياء والصالحين قادرين على جلب النفع أو دفع الضرر باستقلال، وإنما يعتقدون أنهم وسائط بينهم وبين الله ، لأن الله رد هذا العذر بصريح النص بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (سورة الزمر. آية ٣) وقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ (سورة يونس.آية١٨)، وقد أخبر الله سبحانه أن هؤلاء المدعوين هم أنفسهم يطلبون القرب من الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (سورة الإسراء.آية٥٦-٥٧).

وإن الله عز وجل أخبرنا في كتابه عن أهل الجاهلية من النصارى ومشركي العرب الذين كانوا يتوسلون مريم والقديسين والملائكة والأصنام ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ليقربوهم إلى الله زلفى وأنهم شفعائهم عند الله فهؤلاء يدعونهم في حالة الرخاء، أما في حالة الشدة فيخلصون الدعاء لله ولا يشركون معه غيره من المخلوقين في الدعاء قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾(سورة العنكبوت. آية٦٥). وقال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾(سورة يونس.آية٢٢).

مما يدمي القلب أسفاً أن نرى جهال المسلمين يدعون أصحاب القبور والغائبين من

الأولياء والصالحين في الشدة والرخاء.

وأغرب من ذلك أن الله أخبرنا عن المشركين في الجاهلية بأنهم يعترفون بأن الله وحده هو من بيده الرزق والضر والنفع وتصريف الأمور وتدبيرها قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (سورة يونس. آية٣١).

ومع ذلك نرى من جهال المسلمين من ينسب إلى أصحاب القبور وإلى الصالحين من المخلوقين ومن يسمونهم الأبدال والأقطاب الضر والنفع والرزق وقضاء الحاجات وتدبير الأمور والتصرف في الكون، وعلم الغيب، بل نجد مثل هذه العقائد الضالة في كتب بعض المنتسبين إلى العلم ولاسيما في الكتب المؤلفة في كرامات الأولياء.

مع أن أفضل خلق الله سيد المرسلين ﷺ أمره ربه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (سورة الجن . آية ٢١) ، وقوله : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ (سورة الأعراف. آية ١٨٨).

وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ (سورة الأنعام. آية٥٠)، وإنما أوقع جهال المسلمين فيما وقعوا فيه غفلة كثير من المنتسبين للعلم، وتقليد الآباء والأجداد واستحكام العادات والتقاليد، وإحسان الظن بمؤلفي الكتب والتسليم بما فيها دون عرضها على نصوص الوحي، وهذا إذا عذر فيه عوام المسلمين بالجهل، فما عذر المنتسبين للعلم، ومما يدل على تحكم العادات وانه إذا كثر المساس قل الإحساس أن نرى قليلاً من الحركات الإسلامية - مع ظهور العلم وإنتشار الوعي - من يعنى بهذا الأمر مع أنه أساس الإسلام وركنه الأول. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هنا تتضح الحكمة من حرص النبي ﷺ وإلحاحه بالوصية بعدم البناء على القبور والأمر بتسويتها وعدم اتخاذها مساجد أي أماكن للعبادة،لأن كل ذلك هو ما جر إلى فتنة دعاء المقبورين والوقوع فيما ينافي أخص خصائص توحيد الله وإخلاص العبادة له. والله المستعان!

بعض صور الشرك :

إن صور الشرك متعددة وإن الناصح لنفسه ليهرب منه أشد الهرب وينأى بنفسه عن كل طرائقه، وإن من المؤسف جداً أن كثيراً من المسلمين لم يعد عندهم الوعي التام بما هو شرك وما ليس كذلك فصاروا يقعون في الشرك من حيث لا يشعرون وإن من صور الشرك ما يلي :.

١. الذبح للأولياء والصالحين من الأحياء والأموات .

٢. النذر لهم .

٣. دعاؤهم بتفريج الكرب وقضاء الحاجات .

٤. اتخاذهم وسائط ووسائل بين العبد وربه .

٥. اتخاذ قبورهم أعياداً ومزارات تُعظم .

٦. رجاؤهم أو الخوف منهم .

تنبيه :

طال الكلام في هذا الفصل والسبب:

أولاً :خطورة الشرك، من حيث أنه يهدم التوحيد أساس الإسلام الأمر الذي يوجب الحذر من كل ذريعة إليه، ويدل التاريخ على أن أبلغ ذريعة توصل إلى الشرك الغلو في الصالحين واتخاذ قبورهم أماكن للعبادة، ومواسم وأعياد، وتعظيمها بتشييدها والبناء عليها.

ثانياً: حرص النبي ﷺ البالغ على التحذير من هذه الذريعة إذ شدد النهي من اتخاذ القبور مكاناً للعبادة في آخر حياته، ثم كرر ذلك قبل أن يموت بخمس ليال، ثم في آخر لحظات حياته ﷺ، وعنى ﷺ بالنهي من تجصيصها والبناء عليها، وأمر بهدم ما أشرف منها.

ثالثاً: شيوع هذا البلاء في أرض الإسلام حتى لم يبق من بلدان العالم الإسلامي إلا النادر بلد لم تعمه فتنة هذا البلاء.

رابعاً: ضعف اهتمام كثير من المصلحين وغفلتهم عن هذا الأمر الذي من المفروض أن يكون من أول أولوياتهم وعلى رأس اهتمامهم.

ومن أعظم أسباب ذلك شيوع هذا الأمر في المسلمين وغلبته على حياتهم بدأً من سلوك الدولة الفاطمية في مصر، ومعروف من طبيعة الأشياء أن شيوع الأمر أساس لقوته، وتكون قوته بعد ذلك سبباً لزيادة شيوعه وغلبته، وهكذا تتكون الحلقة الخبيثة التي تجعل المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ورتب ذلك ضياع أصوات المصلحين الذين ما فتئوا بين وقت وآخر، ومن مكان لمكان يحذرون من هذا البلاء كما حذر نبيهم ﷺ ويوضحون تمام الإيضاح عن عظيم خطره، والله المستعان.

الوصية الثانية عشرة

التحذير من البدع والمحدثات :

عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا :يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال :«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح).

تمهيد :

إنَّ الحفاظ على قواعد الشرع الحنيف من كلِّ وافد غريب مهمة تقع على عاتق كلّ أفراد هذه الأمّة دون استثناء سيما علماؤها وأهل الرأي فيها، وذلك لأجل الحفاظ على معالم العقيدة الصحيحة التي تشكل حجر الزاوية في بناء حياة الإنسان.

إنَّ التشريع الإسلامي باستناده إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يمتلك مقومات الحصانة والبقاء والاستمرار، ولم يرحل خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ إلاّ وقد اكتملت معالم الدين الاسلامي الحنيف بأبعادها المختلفة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة.آية٣). وبعد تمام الدين وإكماله، لا يكون قابلاً للزيادة أو النقصان أو التعديل، ومن يحاول ذلك فهو مبتدع ومفتر ومقدّم بين يدي الله ورسوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (سورة هود.آية١٨)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (سورة الحجرات.آية١).

إنَّ الاحداث في الدين معول هدّام في صرح الإسلام، وهو من أخطر ما يهدد وحدة الأمة بالفرقة والاختلاف ثم بالعداوة والبغضاء والصراع والاحتراب. ومن هنا أكد الحبيب المصطفى التوصية باجتناب البدعة والإحداث في الدين .

وتعد البدعة من كبائر الذنوب وهي ضلالة كما وصفها الحبيب المصطفى :« وكل ضلالة في النار» (أخرجه النسائي وابن خزيمة في صحيحه).

تعريف البدعة :

لا أحد من المسلمين يقول :إن البدعة مقبولة في الشرع أو أنها مستحسنة من الشارع، ومع ذلك تنتشر البدع بين المسلمين، والسبب في ذلك أن الناس ينكرون من البدع ما هو موجود عند غيرهم، أما ما يشيع عندهم، وقد وجدوا عليه أباءهم وقومهم فلا يظنون أنه بدعة، وهذا يرجع في كثير من الأحيان إلى عدم وضوح مفهوم البدعة لدى كثير من الناس، ولعل أفضل تعريف للبدعة هو تعريف الشاطبي أن: «البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية» أي: التقرب إلى الله.

وربما كان أوضح ضابط للبدعة: أنه كل عمل يتقرب به الإنسان إلى الله ولم يعمله النبي ﷺ أو صحابته الكرام مع وجود الموجب له في وقت النبي ﷺ ووقت أصحابه، وانتفاء المانع منه في وقتهم.

أسباب نشوء البدعة :

أولاً : توّهم أن كل مبالغة في التعبّد لله تعالى قربة :

١ ـ روى جابر بن عبدالله : أنّ رسول الله ﷺ كان في سفر فرأى رجلاً عليه زحام قد ظُلِّل عليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما هذا ؟»قالوا : صائم، قال ﷺ :«ليس من البرِّ الصيام في السفر » (أخرجه النسائي وأبو داود والحاكم وصححه).

٢ ـ ما رواه مالك في الموطأ : إنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال : « ما بال هذا » ؟ قالوا: نذر أن لا يتكلم ولايستظلّ من الشمس، ولا يجلس، ويصوم . فقال رسول الله ﷺ : « مروه فليتكلم وليستظلّ وليجلس وليتم صيامه» .

٣ ـ وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم : دخل أبو بكر على امرأة، فرآها لا تكلّمُ فقال: ما لها لا تَكلَّمُ؟ قالوا : حجَّت مُصمتة، قال لها : «تكلمي،فإنّ هذا لا يحلّ، هذا من عمل الجاهلية فتكلّمت».

٤ ـ وروي عن الزبير بن بكّار أنّه قال : «سمعتُ مالك بن أنس وقد أتاهُ رجل فقال : يا أبا عبدالله من أين أحرم ؟ قال : من ذي الحليفة، من حيثُ أحرم رسول الله ﷺ، قال:

فإنّي أُريد أن أُحرم من المسجد من عند القبر، قال : لا تفعل فإنّي أخشى عليك الفتنة . فقال : وأي فتنة هذه ؟ إنّما هي أميال أزيدها ! قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى أنّك سبقتَ إلى فضيلة قصّر عنها رسول الله ﷺ؟ إنّي سمعتُ الله يقول:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة النور.آية٦٣).

٥ - آخى النبي ﷺ بين سَلْمَانَ وَأَبي الدَّرْدَاءِ فَزارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرأى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فقال لها: ما شَأْنُك؟ قالت: أَخُوكَ أبو الدَّرْدَاءِ ليس له حَاجَةٌ في الدُّنْيَا. فَجَاءَ أبو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ له طَعَامًا، فقال: كُلْ. قال: فَإِنِّي صَائِمٌ.قال: ما أنا بآكل حتى تَأْكُلَ. قال: فَأَكَلَ. فلما كان اللَّيْلُ ذَهَبَ أبو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قال: نَمْ. فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فقال: نَمْ. فلما كان من آخرِ اللَّيْلِ قال سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ، فَصَلَّيَا. فقال له سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ : « صَدَقَ سَلْمَانُ »(أخرجه البخاري).

ثانياً : اتّباع الهوى :

إنَّ رغبة الظهور تلعبُ دوراً كبيراً في حياة الإنسان، وإذا ما انفلتت هذه الرغبة من القيود الشرعية، وتُركت تنمو وتتصاعد حتى تسيطر على مشاعر الإنسان وتتدخل في رسم سلوكه العام فإنّها في نهاية المطاف ستدفع بصاحبها إلى الضلال عن سبيل الله باختراع البدعة وممارستها، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾(سورة القصص آية ٥٠)، وقال عزَّ من قائل:

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (سورة ص.آية ٢٦).

ثالثاً : التسليم لغير المعصوم :

إنّ من أسباب نشوء البدع : التسليم لغير المعصوم، وجعل أقواله أو أعماله دليلاً على الأحكام، لأن غير المعصوم يصيب ويخطئ، وإذا كان ممن لا يتقي الله فقد يكذب فيكون

التسليم لقوله وإتّباعه سبباً للانحراف والابتداع والكذب على الله ورسوله .

إنَّ النبي الأكرم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، وكتابه القرآن الكريم خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع، فلا حكم إلاّ ما حكم به، ولا سُنّة إلاّ ما سنّهُ، والخروج عن هذا الإطار يمهد الطريق للمبتدعين .

رابعاً: الإستناد إلى الأحاديث الضعيفة :

بل حتى الموضوعة والتساهل في ذلك، والنبي ﷺ يقول: «من كذب علي متعمداً فليتبؤ مقعده من النار» (متفق عليه). وقال: «من حدث عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» (أخرجه مسلم). وبقدر ما يقع التساهل في هذا الأمر بقدر ما يبتعد الواحد عن السنة ويقع في براثن البدعة.

تقسيم البدعة إلى بدعة حسنة وسيئة :

يرد في كلام بعض العلماء تقسيم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة والحق أنه ليس مع من قسم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة دليل، لأن البدع كلها سيئة، لقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» رواه النسائي من حديث جابر بن عبد الله بنحوه، ورواه الإمام مسلم في «صحيحه» بدون ذكر: «وكل ضلالة في النار» من حديث جابر بن عبد الله.

وأما قوله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة» (أخرجه مسلم)، فالمراد به: من فعل فعلاً مشروعاً فاقتدى به غيره ففعل مثل فعله، لأنه ﷺ قال ذلك بمناسبة ما فعله أحد الصحابة من مجيئه بالصدقة في مجاعة وقعت، حتى اقتدى به الناس وتتابعوا في تقديم الصدقات. وأما قول عمر رضي الله عنه: «نعمت البدعة هذه» (رواه البخاري)، فالمراد بلفظ البدعة هنا البدعة اللغوية لا البدعة الاصطلاحية، لأن عمر قال ذلك بمناسبة جمعه الناس على إمام واحد في صلاة التراويح، وصلاة التراويح جماعة قد شرعها الرسول ﷺ، حيث صلاها بأصحابه ليالي، ثم تخلف عنهم خشية أن تفرض عليهم، وبقي الناس يصلونها فرادى وجماعات متفرقة، فجمعهم عمر على إمام واحد كما كان على عهد النبي ﷺ في تلك الليالي التي صلاها بهم، فأحيا عمر تلك السنة، فيكون قد أعاد شيئًا قد انقطع لسبب زال، وهو خوف النبي ﷺ أن تفرض على الناس، فيعتبر فعله هذا بدعة بالمعنى اللغوي لا المعنى الشرعي، لأن البدعة بالمعنى الشرعي محرمة، لا يمكن لعمر ولا لغيره أن يفعلها، وهم

يعلمون تحذير النبي ﷺ من البدع.

وليس من البدعة بالمعنى الشرعي الوسائل الموصلة لأمر مشروع مثل بناء المدارس وطبع الكتب، لأن الوسائل لها حكم المقاصد، والوسائل للمقاصد تتغير بتغير الظروف والأحوال والأماكن، ومبتكر الوسيلة الموصلة لمقصد شرعي يدخل في معنى الحديث الشريف «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وأبعد من القول بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة قول من قسم البدعة إلى خمسة أقسام: بدعة واجبة، وبدعة مندوبة، وبدعة محرمة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة إلا إذا قصد بلفظ البدعة البدعة بالمعنى اللغوي لا المعنى الشرعي.

ولعل مما يعينك على التمييز بين البدعة بالمعنى اللغوي و البدعة بالمعنى الشرعي أن تسأل نفسك عند ما يواجهك أمر مبتكر يراد بفعله قصد القربة، هل ثبت فعله عن النبي ﷺ أو عن الصحابة الكرام؟ ثم هل كان موجبه قائماً في وقتهم؟ وهل كان المانع منه غير موجود؟

فإذا كان لم يفعله الرسول ﷺ ولا أحد من صحابته مع أن موجبه موجود والمانع منه غير موجود فإنه بدعة بالمعنى الشرعي.

مثال ذلك لو اختار أحد الأشخاص أن يضاف لفظ (وأعلى) إلى لفظ (الله أكبر) في الأذان، وقال: إن قصدي هو زيادة التعظيم والتمجيد لله، فهنا نقول: إن هذا الأمر لم يفعله رسول الله ﷺ وكان الموجب له وهو التعظيم والتمجيد لله قائماً، والمانع منه منتف، فنعرف بذلك أنه بدعة وضلالة.

مثال آخر: لو اعتاد نفر من الناس صلاة الضحى جماعة وقالوا: قصدنا أن يشجع بعضنا بعضاً على صلاة الضحى، فهنا أيضاً نقول: إن النبي ﷺ لم يصلِ الضحى بأصحابه جماعة على سبيل الاعتياد، مع أن الموجب وهو حمل النفوس على أداء سنة صلاة الضحى قائم، والمانع منه منتف. فعرفنا بذلك أن اعتياد صلاة الضحى جماعة بدعة وتسمى مثل هذه البدعة بدعة إضافية،للتفريق بينها وبين البدعة الأصلية التي هي عمل من أعمال العبادة لم يشرع أصلاً.

الوصية الثالثة عشرة

التحذير من فتنة التهارج و الاقتتال بين المسلمين :

١- وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع : استنصت الناس، فقال: «لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (متفق عليه).

تمهيد :

قد أخبرنا نبينا ﷺ عن آخر الزمان وما يكون فيه من الفتن والإثم والعدوان . أخبرنا عليه الصلاة والسلام عن الفوضى وسفك الدماء والقتل . فقال : «لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتلُ القتلُ» (متفقٌ عليه) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج» قيل : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال: «القتل القتل» (متفقٌ عليه).

وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده ليأتينّ على الناس زمانٌ لا يدري القاتل في أي شيءٍ قَتَلَ، ولا يدري المقتول على أي شيءٍ قُتِلَ . فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : الهرج» (أخرجه مسلم).

وقتل الآدمي من أكبر الكبائر بعد الكفر فلا يباح قتله إلا لمصلحة راجحة وهو أن يدفع بقتله شراً أعظم من قتله فإذا لم يكن هذا الشر لم يجز قتله.

قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾. (المائدة آية٣٢).

فمن هذه الآية الكريمة أخذ العلماء قاعدة: أن الأصل عدم إتلاف النفس، قال ابن تيمية رحمه الله : «الأصل أن الله حرم قتل النفس إلا بحقها، قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فلم يبح القتل إلا قوداً، أو لفساد البغاة وسعيهم في الأرض بالفساد مثل فتنة المسلم عن دينه وقطع الطريق» انتهى من قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم لابن تيمية (ص ٢٠٣ – ٢٠٤).

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله في تعليل منع قتل غير المقاتلين من الكفار: «ولعل سرَّ هذا

الحكم أن الأصل عدم إتلاف النفس وإنما أبيح منه ما يقتضيه دفع المفسدة ومن لا يقاتل ولا يتأهل للقتال في العادة ليس في إحداث الضرر كالمقاتلين فرجع إلى الأصل فيهم وهو المنع».

انتهى من إحكام الأحكام (ج ٤ ص ٥٢٥).

وتدل نصوص القرآن على أن من أبلغ الشرور والمكروهات في علاقة الإنسان بغيره : سفك الدم والفساد في الأرض وإرادة العلو فيها، وقد أكد القرآن هذا المعنى بتكراره في أكثر من مائة وعشرين موضعاً.

ووردت النصوص في القرآن دالة على أن سفك الدم حينما شرع في القصاص والحدود والجهاد شرع لمقاومة تلك الشرور الثلاثة ومكافحتها كما تضمنت ذلك النصوص في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (البقرة آية١٧٩)، وقوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ ... الآية ﴾ (المائدة آية٣٣)، وقوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة آية٢٥١).

أما حينما يكون الموضوع قتل المسلم فإن الكتاب العزيز وكتب السنة طافحان بالنصوص التي تشدد وتؤكد في التحذير منه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساءآية٩٣).

وقال رَسُولَ اللَّه ﷺ: «إذا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ فقلت يا رَسُولَ اللَّه هذا الْقَاتِلُ فما بَالُ الْمَقْتُولِ قال إنه كان حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحِبِهِ» (أخرجه البخاري).

و قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قالوا: يا رَسُولَ اللَّه وما هُنَّ؟قال:» الشِّرْكُ بِاللَّه وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللَّه إلا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ» (أخرجه البخاري).

و قال ﷺ: « لا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ من دِينِهِ ما لم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» (أخرجه البخاري).

ولذا كانت بدعة الخروج على الأئمة من أعظم ما رزئ به الإسلام، ومع أنه حدثت في الإسلام طوال تاريخه بدع شنيعة إلا أن البدعة الوحيدة التي استحقت أن ترد بالتحذير منها والتغليظ فيها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ هي بدعة الخوارج الذين خرجوا على الأمة يكفرون المسلمين ويقتلونهم.

جاء في الحديث الشريف «وَمَنْ خَرَجَ على أُمَّتي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا ولا يتحاش من مُؤْمِنِهَا ولا يَفِي لِذي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ منه» (أخرجه مسلم).

واقع مرير:

وإنه مما يدمي القلب أن نرى في عصرنا الحاضر استخفاف بعض المسلمين بالدماء كما نشاهد في الصومال والسودان والعراق وباكستان وأفغانستان وغيرها من بلاد المسلمين حيث ينصرف المسلم عن قتال عدوه الكافر إلى قتل وقتال إخوانه المسلمين.

حتى ليخشى أن يكون ما يجري في بلاد المسلمين الآن تأويلاً للأحاديث الشريفة مثل: «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل القتل» (متفق عليه)، «والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ولا يدري المقتول على أي شيء قتل فقيل: كيف يكون ذلك قال: الهرج» (أخرجه مسلم).

فالواجب على العلماء والدعاة أن يبصروا العامة بهذا الخطر العظيم وأن يولوه من الاهتمام مثل ما أولاه نبيهم الشفيق بأمته العزيز عليه ما يفتنهم والحريص عليهم ﷺ.

الشرع يحمي الأرواح:

إن الله امتنّ على المؤمنين بأن جعل لهم هذا الإسلام الذي فيه الرعاية والحماية والأمان. وذكّر الكافرين بنعمته عليهم في الأمن بمكة. ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (القصص: من الآية ٥٧). فهكذا كان الدين مسانداً ورافداً ومقيماً للأمن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: من الآية٦٧) ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٣-٤) وما يصيب الناس من مصيبة فيها خوفٌ فبما كسبت أيديهم. ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢).

بالأمن تستقيم المصالح. وباستتبابه والقضاء على المفسدين والقضاء على المنافقين والقضاء على الذين يروّعون الناس فيه المصلحة العظيمة.

الحذر من كيد الأعداء:

لا شك بأن أعداءنا لا يريدون أن يكون لنا أمنٌ واستقرارٌ في بلادنا . لا يريدون أن يكون هنالك مجالٌ لالتقاط الأنفاس، وإقامة الشرع والدين، والدعوة إلى الله، وإقامة الصناعات، والمصالح والمعايش، وتبادل المنافع، وحصول الاستقرار . ولذلك يريدونها فتناً متواصلةً واضطراباً دائماً وقتلاً مستمراً . هكذا يريدون . وهذا واضحٌ مما يسيّرونه من الأمور. ويبقى النصر لمن نصر الله ورسولَه، ودان بدين الله، وأرادها أن تكون كلمة الله هي العليا. وأما العبث والاستهتار فليس ذلك من دين الله . والله يعلم المفسد من المصلح.

الوصية الرابعة عشرة

التحذير من الربا :

١-عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع وفيه ذكر خطبته ﷺ بنمرة يوم عرفة وفيها قوله ﷺ : «وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله » (أخرجه مسلم).

٢-وعن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فذكر خطبته وفيها : «ألا وإن كل رباً في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون » (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي : حسن صحيح) .

٣-وعن أبي حُرَّة الرقاشي عن عمه قال : كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال : «ألا إن كل رباً في الجاهلية موضوع ألا وإن الله قضى أن أول رباً يوضع ربا عباس بن عبد المطلب لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون» (أخرجه الدارمي وأبو يعلى الموصلي وفي إسناده مقال)، وإن صح هذا الحديث كان إعلانه ﷺ بردّ ربا الجاهلية وتحريمه، والبداءة في ذلك بأهل بيته، تكرر في حجة الوداع مرتين : يوم عرفة، وأوسط أيام التشريق .

تمهيد :

أظهر صور الربا وأكثرها شيوعاً قديماً وحديثاً هو: إقراض المال لأجل في مقابل زيادةٍ نظير الأجل.

وتسمى هذه الزيادة في تعبير المصارف العربية الربوية: خدمة الدين، أو الفائدة. كما يسمى القرض الربوي: القرض بفائدة، وذلك عند تعبير هذه المصارف عن الربا باللغة العربية، أما عند ما تعبر عنه بغير العربية مثل الإنجليزية فتسمى الزيادة باسمها الحقيق (interest) أي:ربا.

حكم الربا :

وهو محرم في الشرائع كلها قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ... الآية﴾ (سورة النساء.آية ١٦٠-١٦١).

وفي القوانين الجاهلية كقانون حمورابي، وبعض قوانين الفراعنة المصريين، وحتى القوانين الحديثة العلمانية تحرم بعض أنواعه كما في القانون الفرنسي (١٩٣٥)، والمادة (٦٢٢) من القانون الجنائي الإيطالي.

ولم يزدد في شريعتنا إلا تحريماً فقد جاء في القرآن من الوعيد لآكلي الربا ما لم يتوعد به غيرهم من العصاة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (سورة البقرة.آية ٢٧٥).

بل أعلن الحرب عليهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (سورة البقرة.آية ٢٧٨-٢٧٩).

ومحارب الله محروب مهزوم لا محالة.

وعدّه النبي ﷺ من السبع الكبائر المهلكات فقال كما في حديث أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (متفق عليه).

ولعن كلَ من ساهم فيه فقال كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء» (أخرجه مسلم).

خطورة الربا على الفرد والمجتمع:

إن الربا من أشد المعاصي ضرراً على الفرد والمجتمع، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله» (أخرجه الحاكم وصححه)، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أما أضراره على الأفراد فليس أقلها محق بركة المعاش قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (سورة البقرة.آية ٢٧٦).

والوقوع في غائلة لعن النبي ﷺ، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء».

مفاسد الربا :

إن الشارع الحكيم لم يكن ليحرم الربا هذا التحريم الشديد ويتوعد عليه هذا الوعيد العظيم إلا لأن له مفاسد كبيرة، وإن من المفاسد الكبيرة وهي مفاسد ظاهرة للعيان ما يلي:

١- حصول العداوة والبغضاء بين الناس، وهذا من أعظم ما جاءت الشريعة بمنعه وسدّ كل ذرائعه.

٢- سدُّ باب القرض الحسن، فإن الربا إذا ظهر في الناس منعوا القرض الحسن وأضطر ذوو الحاجة إلى الربا، وإن من لطائف القرآن أنه يقرن الترهيب من الربا بالترغيب في الصدقة. فبعد أربعة عشر آية في الترغيب في الصدقة في سورة البقرة تلاها مباشرة الترهيب عن الربا في سبع آيات، وبعد أن قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أعقبه مباشرة بقوله: ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وبعد قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ (سورة آل عمران.آية ١٣٠).

جاء قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الآية، وفي سورة الروم بعد قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعقبه مباشرة بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ... الآية﴾ (سورة الروم.آية ٣٩)

٣- التضييق على المعسرين، فكم في المحاكم والسجون من معسرين أرهقتهم أقساط الربا فعجزوا عن سدادها فزُج بهم في السجن .

٤- تنمية الأخلاق الدنيئة في متعاطي الربا فمتعاطي الربا تنمو فيه أخلاق خبيثة كالجشع والأنانية والقسوة والاستغلال والطمع قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

وبعد وجود الاقتصاد الكبير في هذا العصر توضحت آثار الربا المدمرة الاقتصادية والاجتماعية مالم يعد يخفى على أحد.

استحلال الربا وممارسته :

ومع الأسف فإن كثيراً من المسلمين في الوقت الحاضر وقعوا في استحلال الربا وممارسته، وكان من أسباب ذلك غفلة بعض العلماء عن حقائق المعاملات، وعدم اعتبارهم لمقاصد تحريم الربا.

فوقع من بعضهم إجازة ما تسميه البنوك قرضاً بفائدة، محتجين بأن القرض الذي يجر نفعاً موضع خلاف غافلين عن أن ما تسميه البنوك قرضاً ليس هو ما يسمى عند الفقهاء قرضاً ،لأن القرض في الاصطلاح الشرعي عقد إرفاق ليس الأجلُ عُنْصُراً فيه، في حين أن ما تسميه البنوك قرضاً بفائدة هو عقد معاوضة، والأجل عنصر فيه فهو في الاصطلاح الفقهي :بيع ربوي، وليس أدل على ذلك من أن البنوك العربية عندما تعبر عن العملية بلغة غير العربية تسميه (ربا) وكذلك يسميه غير العرب المسلمين عندما يصفون هذه العملية أو يمارسونها.

كما شاع استخدام البنوك حديثاً الحيلة الربوية التي يسمونها: التورق. مستغلين غفلة الناس وعدم إدراكهم أن ما يسميه الفقهاء التورق ويجيزه بعضهم ويحرمه بعضهم، يختلف في طبيعة المعاملة عن الحيلة الربوية التي تسميها البنوك (تورقاً) وإن أشبهته في الشكل، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (سورة البقرة.آية ٢٧٥).

والفرق بين الحيلة الملعونة والمخرج الشرعي بالرغم من وجود الشبه بينهما، فرق دقيق ولكنه واضح بحمد الله، ويستند إلى ظهور القصد من طرفي المعاملة، فإذا ظهر من المعاملة أن قصدهما الربا، تبين أن المعاملة حيلة ملعونة، وليست مخرجاً شرعياً.

فالمواطأة بين البنك الدائن والمدين على عناصر العملية يسفر عن نية المتعاملين ارتكاب الربا بصورة عقد شرعي، كما أن آثار الربا المدمرة اقتصادياً واجتماعياً وسلوكياً تتحقق بمثل هذه المعاملة كما تتحقق تماماً بالربا الصريح أو ما تسميه البنوك القرض بفائدة، فاعتبار النية، وملاحظة مقاصد التحريم تكشف بوضوح عن طبيعة الحيلة الملعونة التي تسميها البنوك في العصر الحالي (تورقاً).

الوصية الخامسة عشرة

الوصية بتبليغ الدعوة :

١-عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذكر خطبته ﷺ يوم النحر بمنى وفيها : «ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه» (أخرجه البخاري ومسلم) .

٢-وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فذكر الخطبة وفيها : ثم رفع رسول الله ﷺ رأسه فقال : «اللهم هل بلَّغت ؟ اللهم هل بلَّغت ؟ قال ابن عباس : فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته فليبلغ الشاهد الغائب» (أخرجه البخاري).

٣-وعن جبير بن مطعم قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف، فقال:« نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»

(أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه).

تمهيد :

إن محمداً ﷺ جاء بالهدى والنور فأضاءت به الدنيا، وإن من بشائره ﷺ دخول هذا النور كل بيت حتى لا يدع بيت مدر ولا وبر إلا دخله، ومن أهم الوسائل الموصلة لذلك اضطلاع المسلمين بمهمة تبليغ هذا النور إلى العالم وتبشيرهم به .

ولهذا نراه ﷺ يؤكد على هذه القضية في أعظم المشاهد وأكبر المجامع فيقول لأصحابه ليبلغ الشاهد- يعني أصحابه - الغائب- يعني من وراءهم ..

وقد كان ﷺ يقول لأصحابه : «تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم» (أخرجه ابن حبان والحاكم) .

وهكذا دواليك حتى يعم الخير ويشع النور فلا يبقى على وجه البسيطة رجل وامرأة إلا أصابه هذا الخير ووصله هذا النور .

مفهوم التبليغ :

إن الخطأ في فهم مقصود الشارع بهذه الوصية أوقع كثيراً من المسلمين في التقصير في التبليغ مما نشأ عنه تأخير هذا النور أن يصل إلى أكبر عدد ممكن من العالم، إن التبليغ في مفهوم الشريعة ليس هو أن يكون الإنسان عالماً مفتياً بحيث لا يخفى عليه جمهور مسائل الشريعة حتى يكون مؤهلاً لتبليغ الدعوة، لا ليس الأمر كذلك، واستمع إلى حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قا ل: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «نضَّر الله امراءاً سمع منَّا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه » (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان). فقد أشار في الحديث إلى أن المبلِّغ ربما لم يكن صاحب فقه أصلاً .

وتأمل قصص أصحاب النبي ﷺ تجد الرجل منهم يأتي النبي ﷺ فيسلم ثم ما ينشب أن يرجع إلى قومه مبلِّغاً مبشراً بهذا النور الذي جاء به محمد ﷺ، ولو كان تبليغ دعوة الإسلام والتبشير بها حكراً على الراسخين في العلم ما اضطلع بها أولئك الأصحاب حديثوا العهد بالإسلام .

شروط مبلِّغ الدعوة :.

من خلال حديث زيد بن ثابت السابق يمكن أن نستنتج شرطين فيمن يجب عليه تبلِّيغ الدعوة أو القيام بها :

الشرط الأول : حفظ ما ينقله من الشرع إلى غيره حتى لا يقع في غائلة الكذب على الله ورسوله ﷺ، ولا شك أن المقصود هنا عين القضية التي يقوم بتبليغها لا سائر الشريعة .

الشرط الثاني : الحرص على إيصال ما حفظه من الشرع إلى غيره وتبليغه له إمتثالاً لأمره ﷺ بقوله: «بلغوا عني ولو آية » (أخرجه البخاري)، ورجاء الدخول في دعوته : « نضَّر الله امراءاً سمع منَّا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه » (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان).

الخاتمة

بعد هذه الجولة بين وصايا الناصح الأمين ﷺ والتي نسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلها ذكرى لمن قرأها أو سمعها إنه على كل شيء قدير، نرجو من الله العلي القدير أن يجعل خواتمنا صالحة وعواقبنا إلى خير، كما نرجو أن نكون قد وفقنا في الاختيار والطرح، وما كان في كلامنا من صواب فهو من توفيق الله وتسديده وما كان فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان والله ورسوله مما نسبنا إليهم من ذلك براء، ونستغفر والله ونتوب إليه، وفي الختام نذكر بحديث من آخر وصايا نبينا ﷺ وهو حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن» (أخرجه مسلم).

وأخيراً نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفهـــرس